المركز القومي للترجمة

دوريس ليسنج
الحاصلة على جائزة نوبل للأدب

سجون نختار أن نحيا فيها

3272

ترجمة: سهير صبري

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa



المركز القومي للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: د. جابر عصفور

إشراف: د. أنور مغيث

سجون نختار أن نح



العدد: 3272

تأليف: دوريس ليسنج

ترجمة: سهير صبري

الطبعة الأولى: 1440 هـ - 19

دار العين للنشر

الإدارة : 4 ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: 23962475 2+ فاكس: 23962476 2+

المدير العام: د. فاطمة البودي

E-mail:elainpublishing@gmail.com

المركز القومي للترجمة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة

ت: 27354524 - 27354526 فاكس: 27354554

E-mail:egyptcouncil@yahoo.com

هذه الترجمة العربية لكتاب:

PRISONS WE CHOOSE TO LIVE INSIDE

By: Doris Lessing

يصدر بالتعاون مع دار العين

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: 27354524 - 27354526 فاكس: 27354554

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

Email: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 23304/ 2018

ISBN: 978 - 977 - 490 - 525 - 4



سجون نختار أن نحيا فيـها

تأليف

دوريس ليسنـج

الحاصلة على جائزة نوبل للأدب

ترجمة

سـهيـر صبري







بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

ليسنج ، دوريس، ١٩١٩ – ٢٠١٣
سجون نختار أن نحيا فيها/ دوريس ليسنج؛ ترجمة: سهير صبرى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٥٢٥ ٤

١– المقالات الإنجليزية

٢– العواطف

أ– صبرى، سهير (مترجم)

ب– العنوان

٨٢٤

رقم الإيداع / ٢٣٣٠٤ / ٢٠١٨



"يفعل الإنســـان خيرًا لـــو اهتم بتاريـــخ طبيعته أكثر مـــن اهتمامه بتاريخ إنجازاته".

فريدريش هيبل

"من العبث إغلاق الأبواب أمام الأفكار، فهي تثب من فوقها".

فينزل لوثر مترنيش

"سمة الإنسان المتحضر أن يتشكك في مسلماته الأولى".

"عقل المتعصب كحدقة العين؛ كلما تعرضت لمزيد من النور، زاد انقباضها".

"أوليفر وندل هولمز"، الابن


MOHAMED KHATAB

المحتويات


MOHAMED KHATAB

عندما ينظرون إلينا من المستقبل

كان هنـاك مزارع ناجح ويحظى باحترام كبـير، يملك أفضل قطعان لإنتاج الألبان في البلد، ويقصده المزارعون الآخرون من كل أنحاء النصف الجنوبي من القارة طلبًا للمشورة. كان المكان في "روديسيا الجنوبية القديمة" التي أصبحت الآن "زيمبابوي" حيث نشـأتُ، وكان الزمان بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة.

كنت أعرف هذا المزارع وأسرته معرفةً جيدةً. قرر المزارع، الذي كان اسكتلندي الأصل، استيراد ثور متميز جدًا من اسكتلندا، وذلك قبيل أن يكتشف العلم كيفية إرسـال عجول (محتملة) من قارة إلى أخرى بالبريد الجوي في طرود صغيرة. وصل الثور بالطائرة في الوقت المحدد، على نحو

طبيعي، واستقبلته لجنة من المزارعين والأصدقاء والخبراء. تَكَلَّف ذلك 10,000 (عشرة آلاف) جنيه استرليني، لا أعرف كم يساوي هذا المبلغ الآن، ولكنه كان مبلغًا كبيرًا جدًا تكبده المزارع. أُعِدَّ له بيت خاص، وكان ثورًا ضخمًا مذهلا، وقيل إنه كان وديعًا كالحمل، ويجب أن يُدَغدَغ في رأسه من الخلف بعصا تُمسك بأمان من مسافة من خلف قضبان حظيرته. عُين له حارس، صبي أسود في حوالي الثانية عشرة. سار كل شيء على مايرام؛ وكان واضحًا أن الثور لن يلبث أن يصبح أبًا لعدد لا بأس به من العجول. ظل الثور مصدر جذب للزائرين الذين كانوا يأتون بسياراتهم في عصر أيام الآحاد ليقفوا حول الحظيرة ويتأملوا هذا الكائن الخرافي؛ الذي بدا قويًا جدًا ومنصاعًا تمامًا. ثم، بغتةً وعلى نحو يتعذر تفسيره قتل الثور حارسه، الصبي الأسود.

عُقدت ما يشبه المحكمة، طالب أقارب الصبي بتعويض، وحصلوا عليه. ولكن القصة لم تنتهِ عند هذا الحد، إذ قرر المزارع أن الثور لا بد أن يُقتَل. ولما علم الناس بذلك، ذهب إليه عدد كبير منهم يلتمسون منه الحفاظ على حياة الثور الفخم، ففي نهاية الأمر؛ إنها من طبيعة الثيران أن تندفع هائجة عنيفة على حين غرة، والكل كان يعرف ذلك، وجرى تحذير الصبي الحارس، ولا بد أنه لم يكترث. ومن المؤكد أن الحدث لن يتكرر مرة ثانية... فلماذا تُهدَر كل هذه القوة، والإمكانات الكامنة، ناهيك عن المال؟

قال المزارع الذي لا يلين: "الثور أزهق روحًا، الثور قاتل، ولا بد أن

يُعاقَب. فالعين بالعين والسن بالسن"، وأُعدِم الثور على يد فرقة لإطلاق النار، ودُفن.

كما ذكرتُ من قبل، لم يكن هذا المزارع ساذجًا ولا جاهلاً، بل كان فضلاً عن ذلك، مثلـه مثل رفاقه من الأقلية البيضاء الحاكمة، يقضي قدرًا كبيرًا من الوقت في إدانة السود الذين يعيشون حوله لكونهم بدائيين ومتخلفين ووثنيين، وما إلى ذلك.

أما ما فعله من إدانة حيوان وقتله لأنه ارتكب جُرمًا، فيعود إلى ماضي البشرية السحيق، ماضيها البعيد جدًا حتى إننا لا نعلم متى بدأ، ولكنه كان حتمًا حين لم يكن الإنسان يميز إلا بالكاد بين البشر والحيوانات.

رفض المزارع أي اقتراحات قدمها له في لطف الأصدقاء أو المزارعون الآخرون حول هذا الموضوع قائلاً: "أعرف كيف أميز بين الصواب والخطأ، شكرًا جزيلاً لكم".

في واقعة أخرى في نهاية الحرب الأخيرة، حُكِم على شجرة معينة بالإعدام، إذ جرى الربط بين الشجرة والجنرال "بيتان" الذي أُعتبر في وقت من الأوقات مُنقِذ "فرنسا"، ثم خائن "فرنسا". وعندما أُشين "بيتان"، حُكِم على الشجرة بكل جدية، وأُعدمت لتعاونها مع العدو.

أفكر كثيرًا في هاتين الواقعتين؛ فهما تمثلان الأحداث التي تكشف عن معنى أكبر بمرور الزمن. فكلما بدا أن الأمور تسير بسلاسة تامة –وأنا

أتحدث عن شئون الناس عامة - تصعد فجأة فورات بدائية فظيعة، ويرتد الناس إلى السلوك الهمجي.

هـذا هو ما أريد التحدث عنـه في هذه المقالات الخمس: إلى أي مدى وبأي تواتر يهيمن علينا ماضينا الهمجي، كأفراد وجماعات؟ ورغم أننا نبدو أحيانًا بلا حول ولا قوة، فإننا نجمع، وبسرعة كبيرة، المعرفة عن أنفسنا، ليس كأفراد فحسب، بل كجماعات وأمم وأعضاء في المجتمع. نجمعها بسرعة أكبر من قدرتنا على استيعابها.

نحن في زمن مِنْ المخيف فيه أن نكون أحياءً، حيث يصعب أن نفكر في بني البشر كمخلوقات عاقلة. فأينما نولي نظرنا نرى الوحشية والغباء، حتى ليبدو أنه لا يوجد عداهما شيء نراه - انحدار نحو الهمجية في كل مكان، ونحن عاجزون عن كبحه. ولكني أعتقد أنه رغم حقيقة وجود تدهور عام، وتحديدًا لأن الأمور مخيفة لهذه الدرجة، فقد أصبحنا مُنَوَّمين مغناطيسيًا، فلا نلاحظ القوى المماثلة في الشدة الموجودة على الجانب الآخر، وهي باختصار قوى العقل والرشد والتحضر، وإذا لاحظناها فإننا نستهين بها.

أعرف وأنا أقول هذه الكلمات إن هناك بلا شك أناسًا ربما يتمتمون قائلين: "أين هذا؟ لابد أن السيدة مختلة لترى أي جميل وسط الفوضى التي تكتنفنا".

أعتقد أن هذا الرشد نلتمسه تحديدًا في عملية الحكم على سلوكنا - ونحن نستقرأ سلوك المُزارع الذي قتل حيوانًا لجعله يُكفِّر عن جريمة، أو أولئك

الذيـن حكموا على شـجرة وأعدموها. ففي مقابل هـذه الغرائز البدائية ذات القوة الهائلة، لدينا ما يلي: القدرة على مراقبة أنفسنا من وجهات نظر أخرى، بعضها قديم جدًا - ربما أقدم كثيرًا مما ندرك. فلا جديد في المطالبة بوجوب أن يحكم العقل الأمور الإنسـانية. فعلى سبيل المثال، عثرتُ، في سياق دراسة أخرى أجريها، على كتابٍ هندي عمره لا يقل عن ألفي عام، عبارة عن دليلٍ للحُكم الرشـيد للدولة. والإرشادات الواردة فيه لا تقل رصانةً وتعقلاً ورشدًا عما عسانا الإتيان به الآن؛ ولا يُطالِب بمستوى أقل في طريق العدالة، حتى وفق فهمنا نحن لها. وسـبب ذكري لهذا الكتاب، واسمه "أرثاسَـسترا" (Arthásàstra)(*) وكَتَبه "كوتيليا" (Kautilya) - ولكن للأسف يصعب الحصول عليه خارج مكتبات متخصصة - إن هذا الكتاب الذي نظنه عتيقًا بدرجة غير معقولة يتحدث عن نفسه مثلما يفعل آخِرُ ما صدر من صف طويل من الكتب المشابهة.

(*) أرثاسَسترا (Arthashastra): كتاب هندي قديم مكتوب باللغة السـنسكريتية عن فن الحكم والسياسة الاقتصادية والاستراتيجية العسكرية، من المرجح أنه عمل لعدة مؤلفين على مدى قرون، وإن كان يُعرف بأن كاتبه هو "كوتيليا" الذي كان مُعلِّم الإمبراطور والوصي عليه، ولكن الدارسين يتشككون في ذلك. ألف الكتاب وتوسع ونُقح فيما بين القرنين الثاني قبل الميلاد والثالث الميلادي، وكان له تأثير كبير حتى القرن الثاني عشر حيث اختفى، ثم أعيد اكتشافه في عام 1905، ونُشرت أول ترجمة له باللغة الإنجليزية في عام 1915. يُترجَم اسم الكتاب غالبًا إلى "علم السياسة"، وإن كان يشمل نطاقًا أوسع من ذلك، فهو يحتوي على كتب عن طبيعة الحكومة، والقانون، والنظام القضائي المدني والجنائي، والأخلاق، وعلم الاقتصاد، ونظريات عن الحرب، وطبيعة السلام، وواجبات والتزامات الملِك، كما يتحدث عن الرفاه الاجتماعي، والأخلاق الجماعية التي تحافظ على تماسك المجتمع، وينصح الملك بما يتوجب عليه عمله في أوقات الكوارث كالمجاعات والأمراض والحروب. (المترجمة، المصدر: ويكيبيديا).

قد يُقال إن ذلك مدعاة للحزن وليس للتفاؤل، إنه بعد عدة آلاف من السنين من المعرفة التامة بالكيفية التي يتعين أن تُدار بها الدولة، ما زلنا بعيدين جدًا عن تحقيق ذلك، ولكن - وهذا صميم الموضوع ولب ما أريد قوله - إن ما نعرفه الآن عن أنفسنا أكثر تطورًا وعمقًا عما كان معروفًا وقتها، وما كان معروفًا طوال تلك الآلاف من السنين.

لو أننا نضع ما نعرفه موضع التطبيق... ولكن تلك هي المسألة.

أتصور أنه عندما ينظر الناس إلى زمننا من المستقبل، فأكثر ما سوف يتعجبون له هو أننا "نعرف" عن أنفسنا الآن أكثر مما عرفه الناس فيما مضى، ولكنَّ قدرًا ضئيلاً جدًا من هذه المعرفة يُوضَع موضع التنفيذ. حدثت انطلاقة كبرى في المعلومات عن أنفسنا، جاءت نتيجة لقدرة الجنس البشري - الوليدة لا تزال - على النظر إلى نفسه بموضوعية، وتهتم هذه المعلومات بأنماط سلوكنا، ويُطلَق عليها أحيانًا العلوم السلوكية، وتدور حول الكيفية التي نعمل بها سواءً في مجموعات أو أفراد، وليس تلك التي نحب أن (نظن) أننا نسلكها ونعمل بها، والتي تكون في الغالب مداهِنةً ومجامِلةً؛ معلومات حول كيف نراقب أنفسنا أثناء عملنا ومسلكنا على نحو مجرد من الأهواء كما نفعل عند رصد سلوك الأنواع الأخرى. هذه العلوم الاجتماعية أو السلوكية هي تحديدًا ثمرة قدرتنا على التجرد وعدم مداهنة أنفسنا. ثمة كم ضخم من المعلومات الجديدة من الجامعات ومعاهد البحوث والهواة الموهوبين، ولكن الطرق التي نحكم بها أنفسنا لم تتغير بعد.

لا تعلم يدنا اليسرى - ولا تريد أن تعلم - ما تفعله يدنا اليمنى.

هذا ما أظنه أكثر الأشياء غرابةً يمكن رؤيتها عنَّا كنوع الآن. وسوف يتعجب القادمون من بعدنا أشد العجب لذلك، كما نتعجب نحن لعمى وتصلب أسلافنا.

أقضي بعض الوقت أتساءل، كيف يا ترى سنبدو للقادمين من بعدنا؟ وهذا ليس اهتمامًا فارغًا، بل محاولة متعمَّدَة لدعم قدرة تلك "العين الأخرى" التي يمكننا اللجوء إليها للحكم على أنفسنا. كل مَنْ يقرأ التاريخ يدرك أن القناعات القوية المتقدة في قرن من الزمان عادة ما تبدو سخيفة وعجيبة للقرن التالي. لا توجد حقبة في التاريخ تتراءى لنا كما لا بد أنها تراءت لِمَنْ عاشوها. فما نعيشه، في أي عصر، هو وقع العواطف الجماعية والظروف الاجتماعية علينا، ومن المُتعذِّر تقريبًا أن نفصل أنفسنا عنها. وغالبًا ما تكون العواطف الجماعية هي تلك التي تَلُوحُ كالأنبل والأفضل والأجمل. ولكن، في غضون عام أو خمسة أعوام أو عقد أو خمسة عقود، سيتساءل الناس "كيف لهم أن اعتقدوا في ذلك؟" لأن أحداثًا ستكون قد وقعت وأقصت تلك العواطف الجماعية إلى مزبلة التاريخ، إذا جاز لنا القول.

عاش أبناء جيلي جملة من تلك الانقلابات الحادة. سأذكر أحدها فحسب. إبان الحرب العالمية الثانية، من اللحظة التي اجتاح فيها هتلر الاتحاد السوفيتي وأصبح الأخير حليفًا للدول الديمقراطية، نظر الرأي العام السائد لهذا البلد بعاطفية وود، وأصبح ستالين هو "العم جو"، صديق الرجل العادي؛

وروسـيا هي أرض الأبطال البواسل محبي الحرية؛ والشيوعية تجليًا مثيرًا للرغبة الشعبية - التي ينبغي أن نحذو حذوها. ظلت هذه هي الحال طوال أربع سنوات، ثم فجأة، يكاد يكون بين عشية وضحاها، انقلب الحال إلى النقيـض. أصبحت تلك المواقف خاطئة وخائنـة وتمثل تهديدًا للجميع. بدأ مَنْ كانوا لتوهم يدردشون عن العم جو - فجأة، وكأن شيئًا لم يكن - في اسـتخدام شـعارات الحرب الباردة. وهكذا تَحوَّلنا من تطرف عاطفي وسخيف اقتضاه زمن الحرب، إلى تطرف آخر أخرق وسخيف.

أن تعيش انقلابًا كهذا مرة كافٍ بأن يجعلك انتقاديًا للاتجاهات العامة الدارجة طوال حياتك بعد ذلك.

أعتقد أن الكُتَّاب بحكم طبيعتهم يسهل عليهم أكثر بلوغ هذا التجرد من العواطف الجماعية ومن الأحوال الاجتماعية. فمَنْ يستقرأون ويراقبون طوال الوقت يصبحون انتقاديين لما يستقرؤنه ويراقبونه. اِنظرْ إلى كل تلك اليوتوبيات التي كُتبت على مر العصور. "يوتوبيا" لـ"توماس مور"، و"مدينة الشمس" لـ"توماسو كامبانيلا"، و"أخبار من اللامكان" لـ"ويليام موريس"، و"Erewhon" لـ"صمويل باتلر" (وهي كلمة "اللامكان" بالإنجليزية معكوسة الحروف)، وكل تلك المخطوطات المتنوعة التي يُنتجها كُتَّاب الخيال العلمي والفضاء من أجل أشكال مستقبلية مُحتمَلة، وأظنهم جميعًا قد ساروا على نفس المنوال. كلها بالطبع انتقادات للمجتمعات القائمة لأنك لا يمكن أن تكتب يوتوبيا في الفراغ.

أرى أن الروائيين يباشرون مهام عديدة نافعة لرفقائهم المواطنين، غير أن واحدة من أكثر تلك المهام قيمةً هي: تمكيننا من رؤية أنفسنا كما يرانا الآخرون.

لهذا السبب بالتحديد، تُثار الريبة حول الكُتّاب في المجتمعات الشمولية. فهذه الوظيفة - الوظيفة الانتقادية - غير مسموح بها في جميع الدول الشيوعية.

بهذه المناسبة، أرى الكُتّاب عامةً في كل بلد من البلدان كوحدة، كيان تقريبًا، أنشأه المجتمع وطوَّره كوسيلة للفحص الذاتي. وهذا الكيان يختلف من عصر إلى آخر، وهو دائم التغير. وأحدث تطور له نجده في الفضاء والخيال العلمي، وهذا متوقع لأن الإنسانية "منخرطة" في دراسة الفضاء، ولم تأخذ العلم كنزوع طبيعي سوى مؤخرًا (من الناحية التاريخية). ولابد أن نتوقع أن يتطور هذا الكيان ويتغير مع تَغَيُّر المجتمع، وهو كيان غير واعٍ بنفسه ككيان، ككلٍ واحدٍ، وإن كنت أعتقد أنه سرعان ما يعي ذلك.

إن العالم يصير واحدًا، وهذا يتيح لنا جميعًا رؤية مجتمعاتنا الكثيرة المتباينة كجوانب مِن كل متكامل، ورؤية القواسم المشتركة فيما بينها. إذا رأينا الكُتّاب هكذا - كطبقة أو شريحة أو ضفيرة في كل بلد، متنوعين تمامًا، ولكنهم معًا يشكلون كلاً متكاملاً - فهذا من شأنه أن يُبدد التنافسية المسعورة التي تعززها الجوائز - وما إلى ذلك. أعتقد أن الكُتّاب في كل مكان هم جوانب من بعضهم البعض، جوانب من وظيفة أنشأها وطَوَّرها المجتمع.

لا أظن أن المواقف من الكُتَّاب والأدب تعكس ذلك، ليس بعد، وإن كان الكُتَّاب والكتب والروايات يُستَغَلون على هذا النحو.

يقول أحد أصدقائي من الأنثروبولوجيين إن الروايات ينبغي أن توضع جنبًا إلى جنب مع كتب الانثروبولوجي. فالكُتَّاب يعلِّقون على الحالة الإنسانية، ويتحدثون عنها باستمرار. إنها موضوعنا. فالأدب واحد من أجدى السبل لدينا لإحراز هذه "العين الأخرى"، هذا الأسلوب المتجرد لرؤية أنفسنا؛ والتاريخ سبيل آخر. ولكن يتعاظم بين الشباب عدم رؤية الأدب والتاريخ كأداتين لازمتين للحياة... وسأعود إلى ذلك لاحقًا.

لنعُدْ إلى قصة الفلاح والثور، ربما يقول قائل إن ارتداد الفلاح المُباغتِ للبدائية لم يُلِمّ بأحد سواه هو وأهله، وأنها لم تكن سوى واقعة طفيفة جدًا على مسرح الأعمال الإنسانية، ولكننا نرى الفعل ذاته في أحداث جِسام تصيب مئات، بل ملايين من الناس. منها على سبيل المثال، عندما قام مشجعو كرة القدم البريطانيون والإيطاليون بأعمال شغب في "بروكسل" مؤخرًا، تحولوا إلى مجرد حيوانات، كما ردد المتفرجون والمعلقون مرارًا. كان الأجلاف البريطانيون كما يبدو يبولون على جثث مَن قتلوهم. ولا أرى أن استخدام كلمة "حيوان" مُجديًا هنا. ربما كان هذا سلوكًا حيوانيًا، لا أدري، ولكنه قطعًا مسلك بشري - عندما يترك الناس أنفسهم يرتدُّون إلى الهمجية - وهم يفعلون ذلك لآلاف، وربما ملايين السنين- وذلك وفقًا لما يقرره المرء كبداية لتاريخنا كبشر، ولا حيوانات.

في أوقات الحرب، كما يعرف كل مَنْ عاش حربًا، أو تـحَدَّث إلى جنود، حين يسـمحون لأنفسـهم باسـتعادة الحقيقة، وليست القصص العاطفية التي نتسـتر جميعًا وراءها لنحجب أنفسـنا عن الأهوال التي يَقْدرُ البشر على الإتيان بها... في أوقات الحرب نرتدُ، كنوعٍ، إلى الماضي، ويُباح لنا أن نكون وحشيين وقساة.

ولهذه العلة، وعلل أخرى بطبيعة الحال، يستمتع عدد كبير من الناس بالحرب. ولكنها واحدة من الحقائق الخاصة بالحرب التي لا يتحدث عنها أحد في أغلب الأحوال.

أظن أنه من قبيل العاطفية تَنَاولُ موضوع الحرب، أو السلام، دون التسليم بأن عددًا كبيرًا من الناس يسـتمتع بالحرب - ليست فكرتها فحسب، بل بالقتال نفسه. جلستُ، خلال حياتي، ساعات وساعات أُنصت إلى أناس يتحدثـون عن الحرب، إتقاء الحـرب، وفظاعة الحرب، دون أن يُذكَر لمرة واحدة كون فكرة الحرب مشوقة لأعداد كبيرة من الناس، وأنه عندما تضع الحرب أوزارها ربما يقولون إنها كانت أفضل فترة في حياتهم. وينسـحب ذلك حتى على مَنْ كانت تجربتهم في الحرب مُخيفة، ودمرت حياتهم.

يعرف كل مَنْ عاش حربًا أنه مع اقترابها، يبدأ شـعور سري بالانتشاء غير المعترف به في بادئ الأمر، كأن طبولا غير مـسموعة تُقرَع... وتتفشى إثارة عنيفة مخيفة محرَّمة في كل اتجاه. ثم يصبح الانتشاء أقوى من أن يُغفَل أو يُهمَل: ويستحوذ الشعور على الجميع.

قبل الحرب العالمية الأولى، اجتمعتْ الحركات الاشتراكية من كل أوروبا وأمريكا للاتفاق على أن الرأسمالية كانت تُذكِّي نار الحرب، وأن الطبقات العاملة في كل تلك الدول ينبغي ألا يكون لها ناقة ولا جمل في الأمر. ولكن في اللحظة التي وقعت فيها الحرب بالفعل، وبدأ الانتشاء السام الذي يذهب بالألباب، أصبحت كل تلك القرارات النبيلة الحكيمة المهذبة حول عدم الدخول في الحرب نسيًا منسيًا. سمعتُ شبابًا يناقشون ذلك، غير مستوعبين له، لأنهم لا يدركون كيف يحدث، ولأنهم لم يجربوه، ولم يخبرهم أحد عن هذا الشعور العام المخيف بالانتشاء، وأنه بالغ القوة، لأنه آتٍ من جزء في مخ الإنسان ومن الخبرة الإنسانية أقدم من الجزء المهذب العطوف العاقل الذي يُصدِر قرارات تُدين الحرب. ولكن تَخيَّل لو كانت الوفود المشارِكة في مؤتمر الاشتراكيين هذا لديها هذه المعلومات. بل أهم من ذلك، تخيل لو أنهم أُعِدوا لمناقشة الأمر كما وقع عليهم، لأنه يسهل وصف الغير بالبدائية، ويصعب الإقرار بأننا ربما نكون كذلك. لا شك أنهم لو علموا لكانوا أكثر فعالية؛ وربما، كما توقعوا جميعًا، عبثًا، أن يحدث، لامتنعت جماهير أوروبا العاملة عن الذهاب إلى المذبحة كالخراف.

حين كنتُ في "زيمبابوي" في عام 1982، أي بعد عامين من الاستقلال، ونهاية تلك الحرب المُروِّعة التي فاق قبحها ووحشيتها مرات ما قيل لنا عنها، قابلتُ جنودًا من كلا الجانبين، من البيض والسود. كانت الحقيقة الناصعة الأولى- الناصعة لشخص خارجهم، إن لم تكن لأنفسهم - أنهم كانوا في حالة من الصدمة. لقد تَركَتْهم سبع سنوات من الحرب في حالتيّ

خواء وذهول غريبتين، وأخالُ أن ذلك لأنه متى أُضطر الناس للاعتراف، من واقع التجربة الحقيقية، بما نقدر على الإتيان به، فمن المروع أننا لا نستوعب ذلك بسهولة، أو نستوعبه أصلا؛ بل إننا نرغب في نسيانه. ولكن كانت هناك حقيقة أخرى، وربما أكثر أهمية لأغراض هذه المناقشة. كان باديًا للعيان أن المقاتلين الفعليين من كلا الجانبين، من السود والبيض، استمتعوا مليًا بالحرب. كان قتالاً استلزم براعة عظيمة وشجاعة شخصية ومبادرات ودهاء - وهي المهارات التي يتمتع بها أفراد حرب العصابات، وقد لا تُستَدعى هذه الملكات مطلقًا خلال حياة السلم الممتدة. ولكن ربما يتراءى لأناس أنهم يمتلكونها، ويتوقون سرًا إلى فرصة لاستعراضها. وهذا ليس من أقل الأسباب التي تقوم لها الحروب، كما أعتقد.

ظل هؤلاء الناس، السود والبيض، الرجال والنساء، يعيشون في هذا التوتر الشديد، واليقظة والخطر، بكل قدراتهم مُستغَّلة بكاملها. سمعتُ أناسًا يقولون أن لا شيء أبدًا يرتقي إلى مثل هذه التجربة. كان هول الحرب لا يزال قريبًا بدرجة لا يمكنهم معها قول إنه "أفضل وقت في حياتنا"، ولكنهم، وأنا واثقة، كانوا قد بدأوا التفكير في ذلك. إني أتحدث بالطبع عن المقاتلين الفعليين، وليس عن المدنيين بالتأكيد، الذين مَرَّوا بوقت تعيس بسببها، وعُوملوا بوحشية، وأُستغلوا من كلٍ من قوات الحكومة البيضاء وأفراد حرب العصابات السود لتحقيق مآربهم الخاصة.

انقضت تلك الحرب الآن وذهبت مع الماضي، وصارت تُصاغ في مجموعة

من المفردات وصور البطولة. ومن المُحتمَل أن يخامر الشباب توق صغير في اللا وعي لما يسمعونه في أصوات آبائهم وهم يحكون عنها، إذا كانوا جنودًا، هذا هو الأمر. أما المدنيون الذين عاشوا الحرب فلن يحكوا عنها كثيرًا، فقد أدركوا استحالة نقل فظاعاتها. ولكن الجنود السود - وغالبيتهم تعلموا الحرب فيما كانوا يَشِبُّون من الطفولة - والجنود البيض، سوف يحكون عنها بشوق وحنين. حرب التحرير العظمى، الحرب المجيدة، التي سببت ضررًا نفسيًا كبيرًا للبلد، ولمواطنيه، ضرر لا نريد - بعد حرب - مجرد النظر إليه. ربما نحن "عاجزون" عن النظر إليه نتيجة لهذا الضرر تحديدًا.

لم تكن تلك الحرب البطولية المجيدة حتمية أبدًا في المقام الأول، بل كان يمكن تحاشيها بسهولة باستخدام أقل قدر من التفكير السليم من جانب البيض. غير أن كل الانفعالات البدائية استحوذت عليهم. "سأحمل بندقيتي وأقاتل حتى آخر قطرة في دمي"، وأنا هنا أقتبس بالحرف، وسوف أكمل اقتباس النصف الأول من هذه الجملة، "إذا كنتِ تظنين أن الشيوعيين أمثالك والحكومة البريطانية سيمنحون بلدنا للسود، سأحمل بندقيتي وأقاتل حتى آخر قطرة في دمي". وقد فعل.

ومؤخرًا، سمعتُ الكلام عينه من أبيض جنوب أفريقي.

أجل، يبدو أن صوت العقل الخافت ليس مُرشحًا للفوز في مواجهة انفعالات بدائية كهذه. دعونا ننظر إلى جنوب أفريقيا، حيث لم يتعلموا شيئًا من تجربتيّ "كينيا" و"روديسيا البيضاء". ولكن، يجب أن نطمح في

ذلك، لعل رجالاً ونساءً عقلاء نظروا نظرة مستفيضة هادئة على "كينيا" و"روديسيا" وتعلموا منها، يكونون مندسين وسط المتعصبين. لعل وعسى. وإن كان الأمر لا يبدو كذلك حاليًا.

هذه الكلمة "الدم"، يستخدمها القادة دائمًا وأبدًا لرفع درجة حرارتنا.

"يجب إنعاش شجرة الحرية من حين إلى آخر بدماء الوطنيين والطغاة. فهي سمادها الطبيعي". قائل هذه العبارة هو "توماس جيفرسون"(*).

"دماء جنودنا المُراقة ستلهمنا في وقت السلم".

"بالدم وحده يمكننا أن نولد من جديد".

"الطريق إلى مستقبل مجيد يمتد عبر الدم".

"دماء شهدائنا ستكون ملهمنا: لن ننسى أبدًا الدم الذي أُريق من أجلنا جميعًا".

لا نبالغ إذا قلنا أنه متى لُفظت كلمة "الدم"، فهذا إيذان بأن العقل يهُمُّ بالرحيل.

يعود كل هذا الإتجار بالدم إلى طقوس التضحية، وإلى آلاف السنين

(*) توماس جيفرسون "Thomas Jefferson": (1743 - 1826)، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية، والكاتب الرئيسي لإعلان الاستقلال، وثالث رئيس للولايات المتحدة. (المترجمة، المصدر: ويكيبيديا).

التي قام خلالها كهنة بشَقّ حلوق بشر في البداية، ثم حيوانات بعد ذلك، ليتدفق منها الدم إرضاءً لإله وحشي ما. إنه أمر متغلغل فينا جميعًا بعمق، التضحية بالدم، والضحايا المُقدَّمة كقرابين، وكباش الفداء. عندما يتذرع قائد بالدم ليُلهِبِ حماسنا لدعمه ومؤازرة قضيته، فهذا هو الوقت الذي علينا فيه أن نأخذ حذرنا، أن نفكر في تلك الآلاف الطويلة من السنين التي كانت أرواح أسلافنا فيها يحميها الدم والتضحية. ولكن حياتنا نحن ليست بحاجة إلى الدم؛ ولكننا نرتد إلى استخدامه عندما نُدفَع إلى ذلك فحسب.

في الواقع، علينا تأمل فكرة أنه دائمًا تقريبًا يكون القادة الذين يزعمون أنهم في طليعة التقدم والتنوير، إلخ.. هم الأكثر تأهبًا لاستدعاء الدم، لمدعاة لمتعة السخرية. أجل، علينا أن نتذكر أحيانا أن متعة السخرية هي عزاؤنا الوحيد عندما نتأمل قصة الإنسان...

"سنغرِق العدو في بحور من دمائهم".

أي نعم، العدو....

أُجريّت منذ فترة ليست بعيدة تجربة مفيدة في إحدى الجامعات الأمريكية، جامعة صغيرة تقع بالقرب من بلدة صغيرة، وتربطها صلات وثيقة مع أهل البلدة.

في أحد الأيام، وجه ممثلو قسم الدراسات النفسية الدعوة إلى أهل

البلـدة للحضور إلى الحرم الجامعي للمشـاركة في إحدى التجارب. كان يومـا لطيفًا، وكانت الجامعة مكانًا جميـلاً، دَأَبَ أهل البلدة والعاملون في الجامعة على محاولة إدخال السـرور على قلوب بعضهم البعض. وصل بضع مئات من الناس إلى الحرم الجامعي في الموعد المحدد. ثم... لا شيء ألبَتَّة. لا شيء على الإطلاق. لم يظهر أعضاء قسم الدراسات النفسية في أي مكان. لا إيضاحـات. لا إعلانات. وقف الزائرون في أرجاء المكان يترقبون. ثم بدأوا يفتشـون عن المعارف والأصدقاء فيـما بينهم، ومازال لا شيء يبدو في الأفق. ناقشوا الأمر، وكيف أنهم جاءوا جميعًا ولم يُعرَض عليهم شيء، وبدأوا يتجادلون. وسرعان ما أصبحوا معسكرين، بوجهتي نظر شديدتي التعارض. بعدها انقسم الحضور إلى فريقين، وبرز متحدثون عن كل فريق، ونجم عن ذلك مناظرات، ثم شجار. نوقشت أمور تزيد كثيرًا عن مسألة كونهم دعوا هنـا إلى جامعتهم (إذ يرى أهل البلدة أن الجامعة جامعتهم) ثم أُهملوا. عُرضت أنواع القضايا كافة، واختلفوا حولها.

برزت قضايا الماضي المتنـازع عليها ودَبَّت الحياة فيها مجددًا. وقيل إن المناسبة صارت مفيدة رغم كل شيء، لأنها وفرت الفرصة "لحسـمها للمرة الأخيرة" كما قالت إحدى السـيدات. بدأ المعسكران يتشاجران بدرجة من العنف. وبدأت اشتباكات صغيرة، ظهرت في البداية بين الشباب. وعند هـذا الحد، عندما أصبح جليّـا أن التحامًا أكثر خطورة قد يقع، هَلَّ فريق قسم الدراسات النفسية وقالوا إنهم أوضحوا من البداية أنها كانت تجربة اجتماعية، إذ كانوا يجرون بحثًا عن نزوع العقل البشري إلى رؤية الأشـياء

في ثنائيات - إما/ أو، أبيض/ أسود، أنا/ أنت، نحن/ أنتم، حسن/ سيء، قوى الخير/ قوى الشر.

أكمل الباحثون الشجعان: "أنتم، أيها الجمع، لم تمكثوا هنا سوى ساعتين اثنتين، وانقسمتم بالفعل إلى معسكرين، بقادة، وكل جانب يرى نفسه مُستودَعًا لكل الخير، والمعسكر الآخر تفكيره خاطئ، على أحسن تقدير. وكنتم على وشك الاشتباك حول اختلافات لا وجود لها بالمرة".

لا نعرف كيف أُختتم عصر هذا اليوم الخاص، ولكني آمل أن يكون انتهى بحفل صاخب من نوع ما، تلاشت فيه كل تلك الانفعالات التي تأججت اصطناعيًا في تآلف وانسجام وصفاء نية.

أما عن أمر رؤية أنفسنا على صواب والآخرين على خطأ؛ قضيتنا حق، وقضيتهم باطل؛ أفكارنا صحيحة وأفكارهم كلام فارغ إن لم تكن شرًا مطلقًا... أجل، في لحظاتنا الرصينة، لحظاتنا الإنسانية، الأوقات التي نفكر فيها ونتأمل، ونترك عقولنا الرشيدة تسودنا، نرتاب جميعًا في أن مقولة "أنا على صواب، وأنت على خطأ" هي محض هراء. يسير التطور، على مر التاريخ كله، عبر التفاعل والتأثير المتبادل، حتى أشد الأفكار وأنماط السلوك جنوحًا وعنفًا تُغزَل في النسيج العام للحياة الإنسانية، كأحد خيوطها. يمكننا رؤية هذه العملية المرة تلو الأخرى على مر التاريخ. إذ يبدو، في الواقع، أن ما هو حقيقي في التطور الإنساني - التيار الرئيسي للارتقاء الاجتماعي - لا يمكنه احتمال التطرف، لذلك يسعى إلى إقصاء التطرف والمتطرفين، أو

التخلص منهم باستيعابهم في التيار العام.

يقول هرقليطس الفيلسـوف اليوناني القديم: "كل الأشـياء في تدفق دائم..."

لا وجـود لـشيء من قبيل إنني على صواب، وإننـي أقف في الجانب الصـواب، لأنه في غضـون جيل أو جيلين، من المحتـم أن تصبح طريقة تفكيري الحالية إما مَدْعاة للسخرية بدرجة ما، أو بالية تمامًا بفعل التطورات الجديدة على أحسن تقدير؛ تصبح شيئًا تبدَّل، بكل العواطف التي بُذلت، إلى حصة ضئيلة في عملية عظيمة، هي التطور.

أنتم ملعونون... ونحن ناجون

نشأتُ في بلد كانت تهيمن فيه أقلية بيضاء ضئيلة على الأغلبية السوداء؛ هي "روديسيا الجنوبية القديمة". كانت مواقف البيض إزاء السود جامحة: متعصبة وبغيضة وجاهلة. والأهم لنا هنا، كان افتراض أن تلك المواقف غير قابلة للمنازعة أو التغيير، رغم أن نظرة بسيطة على التاريخ كانت ستُنبِئهم (والعديد منهم كانوا أناسًا مُتعلِّمين) أن حُكمهم حتمًا سيمضي، وأن يقينهم مؤقت. ولم يكن مُباحًا لأي عضو في هذه الأقلية البيضاء الاختلاف معها. وكل مَنْ فعل جُوبِه بالنبذ الفوري؛ وبأنهم لابد أن يعدلوا عن رأيهم، أو يخرسوا، أو يرحلوا. أثناء نظام البيض - الذي استمر تسعين عامًا، والتي لا تُعدّ شيئًا في حسابات التاريخ - كان الخارج عليهم كافرًا وخائنًا.

وكما اقتضت قواعد تلـك اللعبة المعلومة، لم يكن يكفي أن يقتصر القول على "فـلان يختلف معنا، نحن ملاك الحقيقة الدامغة"، بل لا بد أيضًا من إضافة: "فلان شرير وفاسد ومنحرف جنسيًا"، وهكذا.

بعد شهور قليلة من بداية إضراب عمال المناجم في بريطانيا عام 1984، وبينما الإضراب ينتقل إلى طوره الثاني الأكثر عنفًا، ظهرت في التليفزيون زوجة أحد عمال المناجم لتروي قصتها. قالت إن زوجها ظل مُضرِبًا عن العمل لعدة شـهور حتى أفلسـوا. ورغم أنه آزر اتحاد العمال ووافق على ضرورة الإضراب، تراءى له أن "أرثر سـكارجل" [قائد الإضراب] كان يـسيء قيادتـه. على أية حال، عـاد زوجها إلى العمل مع عـدد ضئيل من العمال. فقامت زمرة من عمال المناجم بكسر نافذة منزلهما، وهشموا دارهما من الداخل، وضربوا الرجل. قالت السـيدة إنها تعرف مَنْ قاموا بذلك، لأنهم مجموعة وثيقة الصلة ببعضها البعض، واستطاعت التعرف عليهم، فقـد كانوا أصدقاء لهم. أصابهـا الذهول والارتباك، ولم تصدق أن جماعة مهذبة من عـمال المناجم يمكنها الإتيان بعمل كهذا. وأضافت إن واحدًا مـمن كانوا بين تلك الزمرة ألقـى عليها التحية حين كان وحده "مثلما كان يفعل دائما"، أما وهو مع أصدقائه، فتصرَّف كأنه لا يراها.

قالت إنه تَعذَّر عليها حقًا فهم الأمر. ولكني أرى – وهذا بالتأكيد ما أود قوله – أنه لم يكن يتعين عليها فهم الموقف فحسب، بل توقعه أيضًا؛ علينا

جميعًا أن نفهم هذه الأمور ونتوقعها، وأن نُدمِج ما عرفناه من التاريخ ومن قوانين المجتمع المتاحة لنا بالفعل في الكيفية التي نُنشئ بها مؤسساتنا.

قد يقول قائلٌ إن هذه نظرة قاتمة للحياة، وإن هذا معناه، على سبيل المثال، إننا يمكن أن نقف في قاعة مكتظة بأصدقاء أعزاء، ونحن ندرك أن تسعة أعشارهم سيصيرون أعداءً لنا إذا رغبت الجماعة في ذلك – وسوف يرشقون نوافذ بيوتنا بالحجارة، إذا جاز لنا القول. كما يعني أنك لو كنتَ عضوًا في مجتمع وثيق الصلة ببعضه، فعليك أن تعي أنك باختلافك مع أفكار هذا المجتمع تخاطر بأن تتحول في نظرهم إلى تافه ومجرم وشرير. إنها عملية آلية تمامًا؛ يكاد الجميع يتصرفون هكذا تلقائيًا في مثل هذه الأحوال.

ولكن هناك دائمًا أقلية لا تنحو هذا النحو، وأخال أن مستقبلنا، مستقبلنا جميعًا، يرتكن عليها. وعلينا التفكير في سبل نُعلِّم بها أبناءنا تعزيز هذه الأقلية وليس تبجيل الجماعة، كما نفعل الآن في أغلب الأحيان.

كلام كئيب؟ أجل هو كذلك، ولكن كما نعلم جميعًا، النمو صعب ومؤلم؛ وما نتحدث عنه هو نمو أنفسنا كحيوانات اجتماعية. فالبالغون الذين يتمسكون بكل صنوف الأوهام المريحة والمفاهيم المطمئنة لا ينضجون. ويَصدُق ذلك علينا كجماعات أو كأفراد في جماعات – حيوانات جماعية.

يسهل عليّ الآن قول "حيوان جماعي" أو "الحيوان الاجتماعي"، فقد أصبح مألوفًا الآن قول إننا بني البشر كنا حيوانات، وأن قدرًا كبيرًا من

سلوكنا تعود جذوره إلى السلوك الحيواني السابق. جاءت طريقة التفكير هذه في ثورة هادئة على مدى الثلاثين أو الأربعين عامًا الماضية تقريبًا. ومن التناقض المثير أنه رغم استمرار هذه الثورة ونجاحها، لم تحظَ في المجمل بمباركة الأكاديميين في مختلف المجالات، ومرٌوجوها مُستَهْجَنون، ولكن لا جديد في الأمر. فالمتخصصون، مالكو مجال معين من المعرفة، لا يُؤْثِرون أبدًا أن يشاطر المارقون من بينهم هذه المعرفة مع سواد الناس.

وهناك تناقض آخر في تلك المجالات المعروفة باسم "العلوم الناعمة" - علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي، والأنثروبولوجيا الاجتماعية وما إلى ذلك - تحديدًا تلك المجالات التي تتم فيها اكتشافات كثيرة مذهلة عن أنفسنا، إذ صارت آخر صيحة هي تشويهها وتسميتها العلوم "الفاشلة". نجد دائمًا مراجع تُحقِر أو تستنكر هذه التخصصات "الفاشلة"، كما أن أقسامها هي أول ما يجري التخلص منها متى كان هناك خفض للنفقات. ولكن المثير للانتباه أن كلها مجالات حديثة، حديثة جدًا، بعضها عمره أقل من نصف قرن من الزمان. وبالنظر إليها مجتمعة نجدها ترقى لأن تكون موقفًا جديدًا كليةً إزاء أنفسنا، وإزاء مؤسساتنا - الموقف المتجرد الشغوف المتأني المتقصي، وهو في تقديري أثمن ما لدينا في صراعنا ضد همجيتنا وتاريخنا الطويل كحيوانات جماعية. كمٌ هائل من العمل يجري إنجازه، وأعداد كبيرة من التجارب أُجريت ولا تزال تُجرَى، بعضها يبدل أفكارنا عن أنفسنا تبديلا، وهناك مكتبات كاملة زاخرة بلون جديد من

الكتب - جديد كليةً، جاءت ثمرة لون جديد من البحث والدراسة.

كما ذكرتُ في المقال السابق، إني أعتقد أن القادمين بعدنا سيذهلون لأننا، من جهة، راكمنا معلومات أكثر فأكثر عن سلوكنا، ولم نقم، من جهة أخرى، بأية محاولة للاستفادة مما راكمناه في تحسين حياتنا.

دعونا على سبيل المثال نُلقي نظرة على ما نعرفه حول الكيفية التي نعمل بها في مجموعات. فنحن نعرف الآن أن الناس في المجموعات من المرجح أن يسلكوا طرقًا نمطية يمكن التكهن بها مسبقًا، إلا أنه حين يجتمع مواطنون ليُنشئوا، فليكن، جمعية لحماية أحادي القرن، فإنهم لا يقولون إن هذا الكيان الذي نُنشئه من المرجح أن يتطور بطريقة ما من بين عدة طرق، دعونا نأخذ ذلك في الحسبان ونراقب مسلكنا حتى نتحكم نحن في الجمعية ولا تتحكم هي فينا.

ومثال آخر، قد يكون مفيدًا لليسار أن يقول شيئًا مثل: "لوحظ ببساطة ولفترة من الزمن أن المجموعات المماثلة لنا دائمًا ما تنشق، ثم تصبح المجموعتان الجديدتان عدوتين مُجهَّزتين بقادة يكيلون السباب لبعضهما البعض. فإذا ظللنا متنبهين لهذا النزوع الذي يبدو محمولًا في الثنايا، والذي يجعل الجماعات تنشق المرة تلو المرة، ربما لتصرفنا على نحو أقل آلية".

ولكن لننتبه، يبدو أنه لا يكفي الوعي بالكيفية التي من المرجح أن تحدث بها الأشياء، إذ يُقال إن أولئك الأشخاص شديدي الذكاء الذين أسسوا

الحزب البلشفي في لندن، أعتقد في عام 1905، قالوا لبعضهم البعض: "دعونا نتعلم من الثورة الفرنسية ولا ننشق بعنف حول نقاط من العقيدة، ثم نبدأ في قتل بعضنا البعض". وهذا عينه ماحدث. صاروا عاجزين في قبضة قوى هم أنفسهم مَنْ أطلقوا لها العنان. لم يفهموا ما الذي جرى لهم، رغم ما لدينا من معلومات كثيرة، يمكن إذا انتفعنا بها، أن تُعيننا على فهم ما الذي يحدث لنا في شتى المواقف.

ولكن، يتعرض هذا الإنجاز الكبير الجديد في كل مكان للتقليل من شأنه بين أنماط معينة من الأشخاص، لماذا؟ أعتقد أن الأمر يتعدى في هذه الحالة كونه مجرد استياء الأجيال الأكبر سنًا من الأكاديميين حيال الاتجاهات الحديثة، بل أظن أن ما يلتمسونه دون وعي ولا يجدونه، هو اليقين، والعقائد الصارمة، والوصفات المُؤكَّدة التي يمكن تطبيقها في كل موقف.

يحب الناس الأمور اليقينية. بل إنهم يصبون إليها، وينشدونها ويسعون وراء الحقائق الكبرى الرَّنانة. يميلون لأن يكونوا جزءًا من حركة مجهزة بهذه الحقائق وهذا اليقين، وإذا وُجِد متمردون وكفار، يصبح الأمر أكثر إرضاءً، فهذه التركيبة متغلغلة فينا جميعًا.

في "بريطانيا"، وهي دولة يتسارع فيها الاستقطاب المفرط (ومن المفزع أن تكون جزءًا منه)، كان إضراب عمال المناجم هو الذي عجَّل به، أو أظهر العملية التي كانت قد بدأت، فيما أظن، مع تداعي اليسار وتشظيه. كان

لدينا في "بريطانيا" لأمد طويل توازن بين اليسار واليمين، ويضم كل منهما داخله نطاقًا وافرًا من الآراء المتنوعة. انقضى هذا التوازن، وبات اليسار عددًا هائلاً من المجموعات ما بين صغيرة وكبيرة. وتلك هي الوصفة التقليدية للاضطراب الاجتماعي، بل حتى للثورة.

ولا نلمح هذا الاستقطاب في السياسة فحسب، بل في الجامعات أيضًا. عَزَمتْ صديقة لي على دراسة الأنثروبولوجيا، ووجدت أنه لا بديل أمامها سوى الاستماع إلى محاضرات ماركسية - أي محاضرات تستند إلى الاتجاهات الماركسية. إذا قلتم إن الماركسية لم تعد وحدة واحدة، بل مجموعة من الكنائس الصغيرة، لكل منها عقيدتها الثابتة، فأنا أتفق؛ ولكنها تشترك جميعًا في مواقف معينة، وهي مرة أخرى في اللاوعي بدرجة كبيرة. فبعض الأمور لا تُناقش، أو بالكاد يُشار إليها. وربما تجلس ساعات وأيامًا طويلة في مناقشة حول الحرب، ولا يُشار أبدًا إلى أن أحد أسباب الحروب هو أن هناك من يستمتع بها، أو يستطيب فكرتها. وقد يظل المرء أيضًا يسمع، أو يقرأ، إلى ما لا نهاية عن مشكلات اليسار، ولا تُذكَر محض كلمة عن أن سبب تلك المصاعب التي يواجهها اليسار هو أن الناس رأووا الاشتراكية عمليًا في بلد تلو الآخر، وأنهم في رعب منها. الاتحاد السوفييتي: حُكم استبدادي، ولو أنك اختلفت معه لألفيت حالك في مصحة للأمراض العقلية، لأنك بالتعريف لا بد أن تكون مخبولًا؛ بلد يُقدَّر إن عشرين مليون

إنسـان فيه فقدوا أرواحهم بسبب تجاوزات ستالين. الصين: حيث ذُبح ما بين عشرين إلى ستين مليون إنسان في الثورة الثقافية (تتباين الأرقام حسب المصـدر)، وحيث تراجَع تقدم البلد جيـلاً، وفقًا لتقديراتها هي. كوبا... وإثيوبيا... والصومال... واليمن الجنوبي... ويمكنني أن أستمر، ولكن لا داعي. لا داعي سـوى لأناس داخل اليسار بالفعل. هناك، تسود، كما هـي الحال دائمًا في الحـركات الجماهيرية الكبرى، يقينيـات عاطفية معينة لا تُعارَض ولا تُناقَش. إحدى هذه اليقينيات هي إن الاشتراكيين أفضل من غير الاشتراكيين - أفضل أخلاقيًا، على الرغم من واقع أن الاشتراكية أفرزت أبشع النظم الاستبدادية، وأزهقت أرواح الملايين. وما زالت تفعل. ويقينية أخرى هي أن كل الرأسماليين سيئون، ويضمرون الشر لمجتمعاتهم، وأنهم قساة وفاسدون. وغيرها أن الاشتراكيين مسالمون بالطبيعة. وأخرى أن النسـاء بالفطرة أكثر دَعة من الرجال. التاريخ لا يؤيد ذلك تمام التأييد.

ولكني لا أناقش الاشتراكية والرأسمالية والماركسية وما إلى ذلك فحسب، بـل أناقش العقائد - بُنى العقائـد. يوصف الزمن الذي نعيش فيه بعصر العقائد. لا، إنها ليست المرة الأولى التي يُبتلى فيها العالم بواحدة... ولكن دعونا نعود إلى إضراب عمال المناجم، الذي كان بكل أسف زاخرًا بالأحداث التي تصلح للموضوع الذي أطرحه.

عندما بدأ الإضراب، كانت الأمور سلسة، وكان الحديث يصب تجاه التفاوض والوصول إلى تسـوية. مرت الشهور وتصلبت المواقف. أعداد

وفيرة من العمال لم تكن امتنعت عن العمل منذ البداية، ولم ينل هؤلاء من مقت المُضربين مقدار ما ناله من شاركوا في الإضراب ثم عادوا إلى العمل. وهذا نسق نفسي كلاسيكي. فالخصوم لا يُكرَهون كراهية الحلفاء السابقين. وبحلول وقت الكريسماس كنا قد ألِفنا مشاهدة ممثلي كلا الجانبين في التليفزيون لمناقشة قضيتهم. وحسب رواية أحد الجانبين، كان عمال المناجم هم المسئولين عن العنف وأعمال الشغب والاضطرابات. ووفقًا لعمال المناجم، كان الشرطة والخونة ناقِضو الإضراب هم المسؤولين. لم يذكر أي من الفريقين شيئًا واحدًا جيدًا عن الآخر، كان الجانبان يكذبان... ويكذبان بضمير مستريح، لأن الغاية تبرر الوسيلة. أدرك معظم المشاهدين أن كلا الجانبين مخطئ، وأن كليهما مسؤول عن العنف، وكليهما يكذب، ويكذب وهو مرتاح الضمير.

يعرف الجميع أنه في أوقات كالإضرابات والحروب الأهلية والنزاعات المسلحة، تقع، منذ لحظة استهلالها، مآسٍ من كل لون، حتى إن لم تكن لعِلّة سوى أن أولئك - الذين يستمتعون بأعمال الإجرام العنيف في كل مجتمع - يظهرون على السطح. ولكن المسألة هي أنه في مثل تلك الأوقات، يكون الجميع على دراية بذلك ما عدا المنخرطين فيه، الذين يبدون للناظرين كما السكارى أو مُنَوَّمين مغناطيسيًا أو مَنْ فقدوا صوابهم. نعم، لقد فقدوه بالفعل. إذ صاروا جزءًا من جنون جماعي جسيم، وبينما هم منغمسون فيه لا تنتظر منهم أي حكم فردي...

يصبح ما ينطقون به مُصاغًا في مجموعة من المواقف والاتجاهات التي يمكن التكهن بها تمامًا.

منها على سبيل المثال حديث عمال المناجم عن زملائهم الذين آثروا العودة إلى العمل، مع تكثيف السباب بما لا يخطر على بال (في الأوقات الاعتيادية)، لقد نعتوهم بأنهم خونة، وحثالة، وقذارة، وزبالة، ومجرمون. وكان هذا متوقعًا. ولكن المثير هو قدر ما احتواه حديثهم من لغة دينية. العمال الذين عادوا إلى العمل "خرجوا عن الجماعة"، وينبغي عليهم "العودة إلى الجماعة"، وسوف يُغفَر لهم إذا "عادوا إلى الجماعة". امتلك عمال المناجم "حقًا إلهيًا" لفعل هذا أو ذاك. وبالطبع أُضفيت قداسة على نضالهم من خلال المعاناة والتضحيات.

لقد صار من قبيل الكليشيهات الآن القول إن الحركات السياسية والحركات الدينية تنهج النهج ذاته. نتحدث جميعًا الآن عن "كنائس" الاشتراكية، والعقائد الماركسية الصارمة [الدوجما] المماثلة لما للمتعصبين دينيًا. ولكني أتساءل إذا كان الكلام على هذا النحو قد صار ذريعة (للإعراض عن التفكير). في واقع الأمر، يمكننا مناقشة التعصب السياسي والتطرف والحركات الجماهيرية ومسلكها إلى ما لا نهاية، ولا نشير البتَّة إلى تاريخنا الديني، سوى على نحو مبهم على غرار "بين الأديان والحركات السياسية الكثير من القواسم المشتركة".

إننا ننسى - والشباب لا يعرفون لأنهم لا يطالعون التاريخ - أننا ورثة ألفي عام، تزيد أو تنقص، لواحد من أنكى النظم استبدادًا، التي يعد هتلر وستالين إلى جوارها أطفالا رُضعًا. ولا نقول إن طغاة العصر الحديث لم يتعلموا من الكنائس، والبعض عن وعي. بحلول زمن الحرب العالمية الأولى، كانت الكنائس قد فقدت أنيابها ولم يعد لها النفوذ الأعظم على مجتمعاتنا الغربية. وهي الآن أليفة، وتتوجه في الأغلب إلى الأعمال التي لا تختلف عن العمل الاجتماعي والخيري، ومنقسمة بلا حدود. ورغم اتسام بعض الطوائف بالشمولية، يصعب أن تُهيمن الكنيسة على مجتمع برمته بوصفها الحَكَم والفيصل الأوحد على السلوك والفكر - كما كانت الحال حتى الأمس القريب، تاريخيًا.

ولكن لمدة ألفي عام، كانت أوروبا رهن حاكم مستبد - الكنيسة المسيحية - التي لم تسمح بنسق آخر من التفكير، وبَتَرَتْ المؤثرات الخارجية كافة، ولم تتردد في القتل والإبادة والاضطهاد والحرق والتعذيب باسم الرب. واستحضار هذا التاريخ ليس بغية إحياء ذكرى الاستبداد والطغيان القديم، بل للتعرف على الاستبداد والطغيان في الوقت الحالي، لأن هذه الأنماط لا تزال موجودة فينا. وسيكون من المستغرب ألا تكون.

هذه الأنماط هي في تقديري ما ينبغي علينا دراستها، والوعي بها والتعرف عليها لأنها تظهر فينا وفي المجتمعات التي نعيش فيها.

إن القول بإن "الاشتراكية" شكل من أشكال الدين، أو إن "النازية" كانت دينًا، و"الفاشية" كانت دينًا، أو إن الشيوعيين المحدثين يستخدمون صياغات دينية في أغلب الأحيان، لن يُجدي كثيرًا ما لم نتبين تمامًا ما هو النمط الذي يتحتم علينا البحث عنه.

وأول ما يمكن ملاحظته من الإرث الذي انتقل من المسيحية إلى التفكير والسلوك الاشتراكي هو بلا ريب طائفيتها. كلنا ندرك أن الفِرَق الاشتراكية تبغض بعضها البعض أكثر مما تبغض الأعداء، أو أنها تُهاجِم بعضها البعض بما يبدو كذلك؛ كلنا ندرك أنه كلما تطرفت العقيدة، اشتد الهجوم. وأسوة بالمسيحيين الذين أمضوا قرونًا يزهقون أرواح بعضهم البعض حول التفسير المصيب لكلمة أو عبارة أو جملة من الإنجيل، نجد الفرق الاشتراكية الآن تتبادل السباب وإصدار الأحكام على بعضها البعض. فالشاغل الأول هو اشتمام أوجه الاختلاف واستئصال الخروج عن العقيدة.

إن ميراث بنية الفكر المسيحي فينا هو ما ينبغي علينا دراسته.

يعتقد المسيحي، رجلا كان أو امرأة، أنه في وادٍ من الدموع، وأنه في وضع يحتاج فيه إلى الإنقاذ أو "الخلاص". ويأتي هذا "الخلاص" من خلال التضحية الطوعية من كيان أسمى يأخذ خطايا العالم على كاهله. وستأتي حالة مستقبلية من الكمال المطلق، حيث لا معاناة، ولا آلام. وقبل بلوغ هذه الحالة، ستكون هناك مرحلة وسطية من التهيئة والمعاناة.

ويرى الشيوعيون والاشتراكيون أن النظام الذي نحيا فيه شر ووبال، وأن الرأسماليين ورجال الأعمال أشرار خبثاء، وذلك في أفضل أحوال حسن القصد، وأنه لا مهرب من ذلك سوى بالتغيير التام، العنيف على نحو شبه مؤكد- ثورة تستوجب التضحية والدم. ويعتقد المغالون والمتعصبون من اليمين واليسار إن هذا التغيير سيُنجَز على يد قائد يُسبَغ عليه احترام وطاعة مفرطين. وبعد التحول من نظام إلى آخر، تأتي مرحلة تحمل الكثير من التأقلم والتهيئة والعناء - فلكل شيء ثمنه - ولكن على الناس أن يتطهروا من أخطائهم التي تنبع من الماضي. وسيعقب فترة التطهير هذه حينٌ من السعادة والتحقق المطلقين، الاشتراكية الكاملة، الشيوعية الكاملة، حيث يختفي الإثم من الوجود. تلك هي بنية الفكر المسيحي وبنية الفكر السياسي لليسار ولكثير من الجماعات السياسية من غير اليسار التي تؤمن بالتغيير العنيف الصارم، لأن كل الأشرار والمنشقين عن العقيدة يجب تعقبهم حتى الموت، أو أن "يُعاد تهذيبهم".

يبدو الأمر بهذا الوصف ضربًا من الجنون، وهو كذلك فعلا. جنون ذو قوة هائلة. حين كنتُ شابةً مررتُ بفترة كنتُ فيها شيوعيةً. كان الأمر تحولاً مفاجئًا وشاملاً (رغم قِصَر أجله). كانت الشيوعية في الحقيقة "جرثومة" أو "فيروس" أحمله داخلي بالفعل حينًا طويلاً. كان في حالتي بدافع استنكاري للمجتمع القمعي المجحف لإفريقيا القديمة التي هيمن عليها البيض. ولكن ما أبغي قوله هنا هو شيء آخر: كنا مجموعة بلغت في

عز أوجها نحو أربعين شخصًا. لم يكن أي منا شاذًا أو غريب الأطوار. بل كنا جميعا أفرادًا طبيعيين في المجتمع، أو كنا كذلك من قبل، إذ كان ذلك وقت الحرب، وكان بعض الأشخاص لاجئين. وإذا أخذنا المجموعة جملةً، يمكن القول إننا كنا مفعمين بالحيوية والنشاط وواسعي الاطلاع أكثر من معظم الناس. ورغم ذلك، ولفترة بلغت قرابة العامين - عندما كانت المجموعة لاتزال كلاً واحدًا قبل أن تنشق وتتلاشى - كنا نتمسك بمقولات معينة من العقيدة كمسلمات لا تقبل المناقشة أبدًا. منها، على سبيل المثال، أنه في غضون فترة وجيزة جدًا، ربما نحو عشر سنوات، حين تضع الحرب أوزارها ويعود العالم إلى حالته الطبيعية، سيدرك الجميع نعمة الشيوعية، وسيصبح العالم شيوعيًا، وسيكون بلا جريمة، ولا تميز عنصري أو جنسي. (يجب أن أشير هنا إلى أن الحركة النسائية في الستينيات لم تبتكر انتقاد التمييز على أساس الجنس). آمنًا أن جميع الناس في العالم سيعيشون في وئام وحب ووفرة وسلام، إلى الأبد.

كان هذا جنونًا، ولكننا صدقناه. وما زالت مجموعات كتلك تظهر إلى الوجود على الدوام في كل مكان، وتمر بفترات تكون تلك المعتقدات هي غذاءها، يمقتون فيها كل مَنْ لا يتفق معهم ويضطهدونه ويسبونه. عملية مستمرة طوال الوقت، ولا بد لها أن تستمر في ظني، لأن أنماط الماضي مستحكمة فينا حتى أن أي انتقاد للمجتمع وابتغاء تبديله يقع بسهولة في هذه الأنماط.

في اعتقـادي، أننا واقعون في قبضـة شيء ما قوي جدًا وبدائي للغاية، وأننا لم نبدأ بعد مواجهة الأمر وعلاجه. ندرسـه، نعم، فدراسته مستمرة في مائة جامعة، ولكن نطبقه - لا.

قابلت منذ فترة وجيزة صديقة قديمة وسألتها كالمعتاد "كيف حالك؟" فقالت: "أنا في حالة فظيعة، لا أعرف ماذا أفعل، ابنتي الصغرى - عمرها الآن ثمانيـة عشر عامًا - تبدلت من حـال إلى حال. كنا دائمًا، كما تعلمين، أسرة سعيدة حقًا، وأخشـى أنني أخذت ذلك كأمر مسلم به، ولكن كل ذلك تبدل".

قلت في عقلي: "لا شك أن ابنتها المسكينة داهمتها نوبة من السياسات الثورية، لابـد أن هذا هو الأمر". ولكن صديقتـي أكملت: "كانت دائما متدينة بدرجة كما تعرفين، وتُبدي اهتمامًا بتلك الطوائف، ولكنها أصبحت من طائفة "المولودون من جديد" المسـيحية. تبدلت بين عشية وضحاها. تعيش معنا في البيت ولكنها بالكاد تتحدث مع أي منا، وتكرهني أنا أشد الكراهية، وتمضي جُلَّ وقتها مع رفاقها الجدد، وتعتقد أنهم جميعًا مُدهِشون، وتراهم كالقديسين. وأراهم عاديين تمامًا، لا شيء يميزهم يمكن قوله عنهم، واثنان منهم مختلان على نحو بيِّن. ولكنهم ناجون، ونحن لا، أرأيت؟ نحن سنذهب حتمًا إلى نار جهنم، أما هم فإلى الفردوس. لديهم قائد، أعتقد أنه ليـس سـوى عاشق للسلطة، لكنها لا تستطيع رؤية ذلك، بل تظنه قديسًا

بشكل ما. وحين أسألها كيف تُعامِلنا نحن أسرتها كما لو كنا دنسًا، تجيب بأن المسيح قال لأمه "ما لي ولك يا امرأة؟".

ها نحن أمام النمط عينه تمامًا.

تعرف صديقتي بلا شك، كما أعتقد آملة أن والديّ قد عرفا، عندما جئتُ إليهما بذات النمط: "أنتم ملعونون، وأنا وأصدقائي ناجون"، أن ابنتها سوف "تكبر على ذلك". العالم الغربي حافل بأناس اجتازوا تجربة الكينونة تلك في فترة شبابهم، كانوا أعضاءً في جماعة من المتعصبين والمعتوهين المهتاجين، ثم شَبُّوا عنها. يمكنني القول إن نصف مَنْ أعرفهم في بريطانيا يندرجون تحت هذه الفئة. ولكن في حالتنا كانت جماعات سياسية وليست دينية. وعندما نتذكر تلك الفترة من الالتزام التام بمجموعة من المعتقدات الصارمة التي نجدها الآن مثيرة للشفقة، تعلو وجوهنا ابتسامات ساخرة.

في الوقت نفسه، ونحن ننظر إلى الأجيال التالية وهم يجتازون التجربة بعينها، ولإدراكنا ما نحن مؤهلون للإتيان به، فإننا نخشى عليهم. ولعلي لا أبالغ إذا قلت إن أكثر الأمنيات طيبةً وحكمةً نرتجيها للشباب في هذه الفترات العنيفة لابد أن تكون: "نأمل ألا تتزامن فترة انغماسكم في جنون الجماعة والظن بأنكم مُلَّاك الحق والصلاح، مع فترة من تاريخ بلدكم يكون بوسعكم فيها وضع أفكاركم القاتلة والخرقاء موضع التنفيذ".

"إذا حالفكم الحظ، ستخرجون من التجربة أوسع أفقًا من خلال

خبرتكم لما أنتم قادرون عليه وأنتم في طريق التعصب والتشدد. ستفهمون تمام الفهـم كيف يمكن للعقلاء من الناس، في أوقـات الجنون العام، أن يقتلوا ويُدّمِروا ويكذبوا، ويُقسِموا أن الأسود أبيض".



الانصراف إلى مشاهدة المسلسل

ذُهِلتْ حكومة الولايات المتحدة في أثناء الحرب الكورية إذ وجدت جنودًا أمريكيين يعترفون بارتكاب جرائم شتّى دون أن يكونوا قد اقترفوها بالفعل. كان ذلك بسبب تقنيات غسيل الدماغ التي طبقها عليهم الكوريون الشماليون. شرعت الولايات المتحدة، على إثر ذلك، في إجراء بحوث مكثفة حول غسيل الدماغ وتلقين العقائد. وتواصلت هذه البحوث منذ ذلك الحين، وأتاحت قدرًا هائلاً من المعلومات عن المجتمع والكيفية التي يسير بها، والتي في ظني، ربما بَدَّلتنا وبدلت حياتنا وكيفية رؤيتنا لأنفسنا. تحمل هذه الواقعة الصغيرة من التاريخ عدة وجوه مثيرة للاهتمام: أحدها أنها تمكننا من فهم كيف استخدمت الحكومات من جميع الأطياف، ورجال

الكهنوت، فنون غسيل الدماغ للسيطرة على رعاياهم لآلاف السنين. ومن المهم أن نتأمل إلى أي مدى كان ذلك برجماتيًا، وبأي قدر استند إلى الخبرة الواعية. غير أن الأمر كان بلا شك ترقية في الوعي الذاتي الاجتماعي حين كلفت حكومة عصرية قوية خبراءها باستكشاف مجال كان حتى ذلك الوقت سريًا ومبهمًا- استكشافه على نحو متجرد كما يُفترَض أن يفعل علماء الانثروبولوجيا عند دراستهم لعادات إحدى القبائل البدائية.

أتذكر الحرب الكورية تمام التذكر. كانت حربًا مروعة، ولكن عَتَّمَتْ عليها حرب فيتنام حتى أنها تكاد لا تُذكر إلا حين تُقرر إحدى الشركات التليفزيونية عرض حلقات (M.A.S.H.)(*) مرة جديدة. كانت مروعةً أيضًا لوقوعها بعد فترة وجيزة من الحرب العالمية الثانية، وهي الحرب التي كانت كافية - كما ظن البعض - لأن تختفي الحروب بعدها إلى الأبد من العالم، وكان ظنهم حماقةً كما تبيّن فيما بعد.

كانت الحرب الباردة في أوجها، وكان المناخ ملبدًا كريهًا ويخيم عليه جنون الارتياب. أعلن الشيوعيون فجأة أن الأمريكيين كانوا يلقون مواد مُلوَّثة بالجراثيم على أعدائهم، ويرتكبون فظائع أخرى تتعدى حدود ما

(*) M.A.S.H. هي الحروف الأولى من Mobile Army Surgical Hospital (مستشفى جراحي عسكري متنقل)، وهو الاسم الذي أُطلق على الوحدات الطبية العسكرية الأمريكية التي كانت تعمل كمستشفيات كاملة في مناطق القتال أو العمليات، ونشرتها الولايات المتحدة أثناء الحرب الكورية (1950 - 1953). اشتهر الاسم المختصَر لهذه الوحدات بسبب حلقات تليفزيونية خيالية جرت أحداثها في واحد من تلك المستشفيات. (المترجمة، المصدر: ويكيبيديا).

تُجيزه الحرب من أعمال وحشية. رفض البعض تصديق هذا القول تمامًا؛ وصدقه البعض الآخر في التو واللحظة دون مزيد من التدقيق، بينما وقع آخرون في حالة قلقة حزينة من الحُكم غير المقطوع به، مرددين كما يَتعيّن على المرء أن يفعل: "الحقيقة هي أولى الضحايا في زمن الحرب". كانت المشكلة أن ثمة حلقة مفقودة، والمفقود هو المعلومات. والمعلومات التي افتقدناها وقتها كانت عن تقنيات غسيل الدماغ.

عندما أنظر الآن إلى الوراء يدهشني شيء لم ألتفت إليه حينذاك، وهو توافر أمثلة كثيرة حديثة قبل ذلك لحالات غسيل الدماغ، منها على سبيل المثال المحاكمات الصورية في روسيا في الثلاثينيات وفي تشيكوسلوفاكيا، حين اعترف أشخاص باقتراف جرائم سخيفة حقًا. كما يمكننا النظر، مع الاستفادة، في التاريخ الطويل من مطاردة الساحرات، عندما اعترفت نساء، دون تعذيب في أغلب الأحوال، باقترافهن جرائم. يبدو أن طفرة ما في إدراكنا لم تكن قد حدثت بعد؛ لم يكن في مقدورنا ربط الأمور ببعضها على نحو منطقي. فمن جهة كان كل أولئك الجنود الأمريكيين يعترفون بارتكاب كل أشكال الفظائع، ومن جهة أخرى، كان من المتعذر تصديق أن حكومة الولايات المتحدة أمرتهم بذلك، رغم الشك الذي يساور الجميع حول ما تتهيأ جميع الحكومات لاقترافه في وقت الحرب. ولكننا لم نستطع وضع هذه الحقائق معًا على نحو ذي دلالة: لم تكن الطفرة في فهمنا قد حدثت بعد.

تلك الطفرة هي في ظني أكبر قوة في التطور الاجتماعي، حركة في اتجاه موضوعية أكبر، تبدت في المجال العام عندما أمرت حكومة الولايات المتحدة موظفيها ببحث وتقصي تقنيات غسيل الدماغ، مما كان يعني، بالتعريف، أنها كانت تستخدم هذه التقنيات أحيانًا.

تُستخدم غالبًا دون وعي وعلى نحو برجماتي.

تعرضنا جميعًا، بدرجة أو بأخرى، لغسيل الدماغ من قِبل المجتمع الذي نحيا فيه. ويمكننا ملاحظة ذلك عند سفرنا إلى بلدان أخرى والتقاط لمحة عن بلدنا بعيون أجنبية. وليس في وسعنا شيء حيال ذلك سوى تذكُّر أن الأمر هكذا؛ لكل منّا جزء من الأوهام المريحة الكبرى، والأوهام الجزئية، والتي يلجأ إليها كل مجتمع للحفاظ على ثقته في ذاته. وهذه الأوهام يتعذر فحصها ودراستها، وأفضل ما نأمله هو أن يُمكّننا صديق طيّب من ثقافة أخرى من النظر إلى ثقافتنا بعيون مجردة.

ولكن في حين يصعب تناول هذه العمليات الكبيرة نصف الواعية أو غير الواعية، تسهل دراسة غسيل الدماغ وغرس الأفكار في السياقات الأصغر، لأنها مستمرة طوال الوقت، اِنظرْ على سبيل المثال إلى الطوائف والمذاهب التي تتكاثر بسرعة.

لغسيل الدماغ ثلاث ركائز أو عمليات رئيسية، وهي مفهومة بشكل واضح الآن. أولها التوتر الذي يعقبه الاسترخاء؛ وتُستخدَم هذه العملية، على سبيل المثال، عند استجواب المسجونين، حين يتناوب المحقق معهم

استخدام الشدة واللين - فيكون مُتنمرًا ساديًا في لحظة، وصديقًا ودودًا في أخرى. وثانيها هو التكرار - قول الشيء عينه، أو غناؤه مرارًا وتكرارًا. والثالثة هي استخدام الشعارات - اختزال أفكار مُركَّبة إلى مجموعة بسيطة من الكلمات. وهذه العمليات الثلاث تتَّبِعها الحكومات والجيوش والأحزاب السياسية والجماعات الدينية والأديان طوال الوقت - وكانت تُستخدَم على الدوام. ورغم أني أشرت فيما سبق إلى أهمية تأمل إلى أي مدى يكون اللجوء إلى هذه الأساليب غير واعٍ، فما يعنينا أكثر هنا هو إدراك أن هناك بونًا بين استخدام تلك الأساليب من قِبَل رقيب أول لترويض مجندين خام مبتدئين، وهو في ذلك يفعل ما فتئ أمثاله على فعله دائمًا، واستخدامها على يد ممارس خبير يدرك تمام الإدراك ماذا يفعل.

في جامعة لا تبعد عن هنا ألف ميل، كما يقولون في الحواديت، اكتشف باحث أن بإمكانه أن يأخذ مؤمنًا حقيقيًا - فلنقل شخص ينتمي لطائفة (العِلْم المسيحي)، وإن كان ذلك ليس ذا أهمية - أو شخصًا على ثقة من أن العالم مسطح أو أن نهاية العالم ستحل يوم الجمعة 13 من السنة الكبيسة القادمة، ويستخدم معه تقنيات غسيل الدماغ التقليدية، فيُحوِّل هذا الشخص المخلص أولا إلى واحد من الأدفنتست السبتيين، ثم إلى شيوعي ستاليني، ثم ليبرالي، ثم فيمينست مؤيد للحركة النسوية، ثم إلى ملحد متعنت. ومتى تمت كل هذه التحولات والتي يمكن إحداثها في غضون أيام قليلة، وخلال الفترة التي يكون فيها الشخص، رجلًا كان أم امرأة، فيمينست، أو ستاليني، أو رأسمالي متيقن، سيكون مستعدًا على

نحـو مطلق وقطعي ونهائي لأن يموت مـن أجل ما يؤمن به. ولكن بعد المرور بكل هذه التحولات، يُعاد الشـخص سيء الحظ إلى إيمانه السابق، فلنقل، مؤمن بأن نهاية العالم سـتكون يوم الجمعة 13. وسوف يُنظَر الآن إلى فتراته القصيرة كملحد أو رأسـمالي، إلـخ، كمحض خيالات فكاهية غريبـة من جانب الباحث، وسـيكون إيمانه الحـالي، بغض النظر عما هو، هو الإيمان الصحيح، وأي شـخص لا يؤمن بأن نهاية العالم سـتحل يوم الجمعة 13 هو في أحسـن الأحوال مُغرَر به، ومن المحتمل أن يكون كاذبًا، وشريرًا، ومُستهجَنًا أخلاقيًا، ويجب تجنبه والبعد عنه.

أعرف أن رد الفعل الطبيعي لكل من يسـمع هذه الجزئية المحددة من البحث الاجتماعي تقريبًا هو التأكيد، سرًا أو جهرًا، على أنه "بالطبع (أنا) لا يمكن أن أنصاع مثل هذا الشـخص السخيف، (أنا) سـأكون محصنًا". وسـواء قيل ذلك في السر أو في الجهر، أو قيل أصلاً، يمكننا أيضا سـماع ما يحمله ذلـك ضمنًا "لأن معتقداتي هي المعتقـدات الصحيحة". ولكن وا أسـفاه، وا أسـفاه لنا جميعًـا، فكل منا قـد ينصاع، ما لم نكـن نعاني من أنماط معينة من الشـيزوفرينيا. وكلما كنا أسـوياء العقل أكثر، كان الأكثر ترجيحًا أن نَتحوَّل.

على أية حال، يمكننا مواساة أنفسـنا بقول إن غسيل الدماغ هذا لا يستمر على الدوام عادة. وقد نتعرض لغسـيل الدماغ – على يد مسـتغل واعٍ أو غير واعٍ، أو أن نقوم بغسـيل دماغنا بأنفسـنا (وهذا ليس نادرًا) – ولكنه عادة لا يدوم.

وفي الوقت نفسه، قد يرى البعض التجربة التي وصفتها لتوي كالفجر بعد ليل طويل، ويعتقدون أن العالم بأسره يمكنه أن يصرخ في ارتياح وأمل: نهاية عصر العقائد على مرمى البصر. قريبًا قريبًا سنتجاوز عصر العقائد وحروبه وتعذيبه، وكراهية مَنْ يتبع نمط اعتقاد آخر، قريبًا سنتحرر جميعًا، وكما أوصى جمهور الفلاسفة والحكماء، سنعيش حياتنا جميعًا بعقول خالية من العنف والالتزام المنفعل، نعيشها في حالة من الشك الذكي حِيال أنفسنا وحِيال حياتنا، حالة من الفضول الهادئ المتجرد غير النهائي. ماذا، "كلنا"؟ الجميع؟ حتى كل أولئك المتطرفين المستشاطين غضبًا الموجودين هناك بأفكارهم السخيفة؟ الجميع، الجميع مهيأ لقول: "هذه هي نهاية عصر الاعتقاد؛ سيتخلى كل منا عن الفكرة المريحة التي ترضينا في أننا، نحن فقط، أنا فقط على صواب"؟

يبدو أن الرغبة في التصديق بوجود عصر ذهبي لا تذعن بسهولة... وها أنذا بصيغتي منها. ولكن، لنتكلم جديًا، يبدو لي حقًا أن ثمة جديدًا في العالم، عندما يَقْدِر ولو نفرًا قليلاً من الناس على تفحص أنفسهم بهدوء.

لو أردتَ البحث في عملية غسيل الدماغ عبر جرعات صغيرة، وعلى نطاق محدود، اِلتحقْ إذن بواحدة من الطوائف التي تستخدم هذه التقنيات، ربما دون وعي منها. وعليك، بالطبع، تقبُّل احتمالية أن تقع فريسة لهم. وبدلًا من الموقف الذي تذهب به إليهم من "يا لها من فرصة رائعة لدراسة هذه العملية الاجتماعية الآسرة"، قد تجد نفسك فجأة تصيح قائلا: "أخيرًا،

وجدتُ الحقيقة! هذه الزمرة من الناس الذين قررتُ بكل برود أن أتفحصهم هم مُلَّاك الحقيقة، إنهـم أسرتي الحقيقية. يريدونني أن أكون جزءًا منهم، وسـأكون، لأني أدرك أن الجميع خارج هذه الأسرة أرواحٌ ضائعة، وغير صالحـين، وهـم لا يدركون. هم حثالة وقمامة، ولكننـي لا أريد أن أفكر فيهم إطلاقا. أنا بحاجة إلى أسرتي الجديدة لأن العالم بقعة مفزعة، وحلبة لصراع ونزاع لا يتوقف وساحة لمعركة بين الخير والشر، بين الله والشيطان (أو الشيوعية والرأسمالية)، وأنا وأصدقائي الجدد سنناضل معًا في صف الخير. عليّ ألا أكون لينًا في مواجهة أسرتي الأولى ورفاق الماضي لأن واجبي الأول هو أسرتي الجديدة، أسرتي الحقيقية، التي تهتم بي وتفهمني حقًا، أما أسرتي السابقة فلم تحبني ولم تفهمني في الواقع. إضافة إلى ذلك، فأنا بحاجة إلى موقف صادق وخالص تمامًا لأن جماعتي الجديدة، حلفائي، لهم أعداء كُثر يريدون أن يدمرونا، ولابد أن أكون مهيئًا للكفاح من أجل ما أؤمن بـه، وأن أقتل إذا اقتضى الأمر. فكل شيء له ثمن. يومًا ما سـيكون لدينا عالم مثالي خَيِّر نبيل حر، ولكننا نحن فقط - أنا وأسرتي الجديدة والمؤمنون بنا - يمكننا خلق هذا العالم".

إذا لم تـستـسـلم لذلك - وقد استـسـلم عدد كبير من الناس للعملية لا إراديًـا، وأنا منهم - وإن كنتَ ترى أن التجربة محفوفة بالمخاطر، يمكنك بسـهولة شـديدة مراقبة هذه العمليات وهي تُنفَّذ على أيدي الحكومات، وبالطبع بواسطة المعلنين. شاهد إعلانات التليفزيون على سبيل المثال.

وإلا ماذا عن حرب الفوكلاند؟ دعونا نناقشها دون تحيز، بغض النظر عما إذا كنتُ أتفق معها أم لا. يصرخ أصدقاء لي محتجين بأن أسوأ ما في هذه الحرب كان مشاهدة بلدنا ترتد فجأة لما وصفوه بالنعرة القومية البالية والوطنية البلهاء. لماذا بالية؟ لأن أي أمة يمكن إعادتها إلى قرع الطبول، إلى الرقص حول نار المخيم والتلويح بالتوماهوك(*) - على سبيل المجاز - على يد أي زعيم قادر على استخدام العبارات المناسبة وصيحات الحرب.

تبادر إلى ذهني الآن أن أتساءل، حيث إنه يسهل إلى هذا الحد إثارة البدائية في أمة ما، والتي ربما تُبجِّل الزعيم لعمله هذا، فأين هم الزعماء الذين يختارون، عوضًا عن ذلك، مخاطبة وإثارة الغرائز الأسمى للأمة؟ مَنْ هم؟

عندما أُنتخِبَت السيدة "ثاتشر" لفترتها الثانية، استعانت بشركة الدعاية الكبرى "ساتشي أند ساتشي" لإدارة حملتها. لجأت الشركة إلى كل الحيل المنصوص عليها، من استخدام صياغات محسوبة لإثارة العواطف السهلة، إلى ألوان ملابسها وألوان الستائر التي تقف أمامها، إلى حساب مرات دخولها وخروجها واستخدام الإعلام. في الوقت نفسه كانت المعارضة الاشتراكية سامية المبادئ تحتقر هذه الحيل، وتزدري الإعلام. كنا نشاهد بدقة كيف أُديرت حملة السيدة "ثاتشر" مسرحيًا في برنامج تليفزيوني شديد الذكاء والبراعة. عندما أقول "كنا" فإني أقصد الأقلية في البلد التي شاهدته. وإن كنت أحبذ جعل مشاهدته إجبارية.

(*) بلطة القتال عند سكان أمريكا الأصليين.

وصلنا الآن إلى مرحلة لا يستخدم فيها القائد السياسي الحيل العتيقة لإثارة عواطف الدهماء بمهارة فحسب -انظر يوليوس قيصر لشكسبير - بل يوظف أيضًا خبراءَ لجعل الأمر أكثر فعالية. غير أن عزاءنا أنه في مجتمع منفتح، يمكننا دراسة هذه الحيل التي تُستخدم معنا. إذا - فقط إذا - اخترنا أن ندرسها، ولم ننصرف عنها إلى مشاهدة مسلسل "دالاس"، أو أيًا كان عوضًا عنها.

ما أريد قوله هو أن المعلومات التي تتوفر لدينا عن أنفسنا، كأفراد وجماعات وحشود وعوام، يجري استخدامها بوعي وعن قصد من جانب خبراء توِّظفهم كل حكومات العالم تقريبًا الآن لإدارة رعاياها بمكر ودهاء. سيكون بوسعنا ملاحظة حكومات أكثر فأكثر تستغل نتائج البحوث في غسيل الدماغ، ولكن فقط لو أردنا أن نلاحظ ذلك، وفقط إذا عقدنا العزم على ألا نقع فريسة لها.

في الوقت نفسه، من المثير للاهتمام أن مَنْ يميلون إلى اعتبار أنفسهم جنودًا للخير، أولئك ذوو النوايا الطيبة، يأنفون من تلك الوسائل. أنا لا أقول أن عليهم استخدامها، ولكنهم يرفضون حتى دراستها في أغلب الأحيان، تاركين أنفسهم عرضة للتلاعب بهم عن طريقها. حاولتُ على سبيل التجربة التحدث عن هذا الموضوع مع مجموعات متفرقة من الأصدقاء المشاركين في حركات النوايا الطيبة في عصرنا، مثل: السلام الأخضر، وأنماط متباينة من الاشتراكية، ومعارضون للحرب النووية، ونشطاء من

أجل الحريات المدنية، وحقوق السجناء، والقضاء على التعذيب، وما شابه ذلك. كانت ردود أفعالهم متماثلة عاطفيًا، بالنفور والارتياب، كما لو كان النظر بتجرد إلى سلوك الإنسان، سلوكنا، كشيء على المرء أن يتعلم التنبؤ به، هو بشكل ما رجعية وضد الحرية وضد الديمقراطية.

ولكن خصومنا ليس لديهم مثل هذه الكوابح.

أما إذا كنتَ عضوًا في جماعة ترى بحُكم تعريفها لنفسها أنها على حق وخير وصواب، فضلاً عن كل مشاعر القناعة والرضا عن الذات المصاحبة لذلك - مثل أن خصوم المرء أشرار - يكون صعبًا بالتأكيد أن تتنحى جانبًا، وتتخذ هذه الخطوة الضرورية صعودًا نحو الموضوعية.

يلوح لي أحيانا بالفعل أن انتخابات ثاتشر الأخيرة لخصت الأمر تمام التلخيص: ها هي ذي، كل إيماءة، خروج، دخول، ابتسامة، ملاحظة، أُديرت مسرحيًا بناء على وصفة اجتماعية متطورة للغاية؛ في الوقت الذي كان فيه "مايكل فوت"(*) يَصْفِق نافذة القطار مُترفِّعًا متذمرًا في وجه الصحفيين الذين يلقون عليه بأسئلتهم.

(*) مايكل فوت "Michael Foot": (1913 - 2010)، سياسي عمالي بريطاني، كان عضوًا في البرلمان، ووزيرًا لشؤون العمالة (1974)، ورئيسًا لمجلس العموم البريطاني. أصبح زعيمًا لحزب العمال والمعارضة من 1980 - 1983. قاد حزب العمال في انتخابات عام 1983 التي حصل فيها الحزب على أقل نصيب من الأصوات منذ عام 1918. تقاعد عن منصبه كنائب برلماني في 1992، لكنه أبقى على سمعة جيدة واحترام كبير من أصدقائه وخصومه على حد سواء. (المترجمة، المصدر: ويكيبيديا وموقع الإذاعة البريطانية).

شاهدنا "راجيف غاندي" في الهند يكسب الانتخابات بمعاونة صديق، نجم سينمائي معبود من ملايين الناس. وفي الولايات المتحدة، أصبح النجم السينمائي أكثر رؤساء هذا القرن شعبية، كما سمعتهم يقولون. ولا يخلو الأمر من الشعور القوي بالاستغراب حين أستمع إلى أناس يناقشون سبب نجاح "ريجان" الكبير دون الإشارة إلى أنه من الممكن أن الناس صوتوا له لأنه، كما كان الأمر بالفعل، أُنتخِب من شباك التذاكر.

حكومة عن طريق صناعة الاستعراضات... نعم، تدرك كل حكومة شمولية هذا تمام الإدراك. فكّروا في مظاهرات هتلر الشعبية الكبرى عندما أُثيرت مشاعر ملايين من الناس في هيستريا، أو المواكب العسكرية العارمة للاتحاد السوفييتي، مع استخدام أطفال حِسَان، وبنات، ورقص، وورد، وأغنيات... جنبًا إلى جنب مع الخوف والتهديد.

للأسف، تسير التكنولوجيا الجديدة المرعبة يدًا في يد مع المعلومات النفسية الجديدة.

في بعض الأحيان، تؤدي التكنولوجيا إلى نتائج لم تكن متوقَّعة. قرأتُ تقريرًا عن الجنود المقدر لهم الوجود على الخطوط الأمامية، وكيف يجري إفقادهم حساسيتهم بتعريضهم عمدًا إلى درجة من الوحشية تُفقِدهم تدريجيًا قدرتهم على رؤية مَنْ عليهم مهاجمتهم أو التحقيق معهم كبشر. وهذه العملية مُحكَمة ومُحنَّكة يعرف فيها المدربون تمام المعرفة ماذا يفعلون، وكيف يتعاملون على مهل مع مَنْ يتعهدونهم، مرحلة مرحلة، حتى يمكنهم

التعذيب أو القتل دون أي مشاعر البتة.

تعالت مؤخرًا احتجاجات على هذه الممارسة في عديد من البلدان، ورغم ثقتي أن عدد الجنود الذين يخضعون لهذه العملية لم يقل عن ذي قبل، إلا أن الضجيج حول الموضوع قد خفت. ولكن ما يصدمني هو: أن التكنولوجيا - التليفزيون والسينما لنكون محددين - تقوم في هذه الحالة بالعملية عينها تماما، تُعرِّضنا لدرجة من القسوة الوحشية من كل نوع حتى نفقد إحساسنا إزاءها. نفقد حساسيتنا على نحو عَرضي لم يكن في الحسبان.

أثارت صور المجاعة في "إثيوبيا" ضمير الناس في بلدان عدة. ولكن ربما لا تُثير صور الضحايا من أجزاء أخرى من العالم أي استجابة. علمنا منذ زمن ليس بالبعيد أن عددًا غفيرًا من الناس كان سيجري إعدامهم علانية في "نيجيريا"، ولكن لم يحدث أي رد فعل عملي من العالم. ربما يتذكر بعضنا الصدمة والقلق اللذين تجليا في أرجاء العالم بعد الحرب العالمية الثانية عندما قرر "الاتحاد السوفيتي" إعدام مجرمي حرب ألمان علانية لتهدئة غضب المنهوبين والمسلوبين والمذبوحين من المدنيين الروس. صُدمنا رغم ما عشناه من أهوال قرابة السنوات الخمس. كنا قد تجرعنا وامتلأنا بالفظائع، ولكننا كنا لا نزال قادرين على الاستجابة. أتساءل، هل يمكن أن يحتج أي شخص الآن؟ لقد أصبحنا بلداء. فقدنا حساسيتنا. إن مشاهدتنا ليلة بعد ليلة، ويومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام للأهوال الجارية في أنحاء العالم أفقدتنا حساسيتنا تمامًا مثل أولئك الجنود الذين حُوِلوا عمدًا إلى قساة

وحشـيين. لا أحد يخطط لتجريدنا من إنسانيتنا وتحويلنا إلى أفظاظ جُفَاة القلب، ولكن هذا ما نصير عليه أكثر فأكثر.

لم يحدث هذا نتيجة لوجود خبير ما سـاخر مُتلاعبٍ يسـتخدم المعرفة بعلم النفس قصدًا، ولكنه يأتي في معظمه نتيجة عَرَضية للتكنولوجيا.

أتسـاءل إذا كان المهتمون بهذه الأمور سيبحثون في المستقبل عما حرك ضمير العالم حول "إثيوبيا" بينما لم يحرك ذات الضمير ساكنًا حول المجاعة والمعاناة التي سـببها "الاتحاد السوفيتي" في "أفغانستان"؟ يوجد ما يربو على خمسة ملايين لاجئ في باكستان وإيران، أي ما يزيد على ثلُث السكان. تُدَّمر في أفغانسـتان المحاصيل عمدًا بالنابالم، وتُخرَّب قرى، ويُقعَد أطفال باسـتخدام متفجرات مُخبَّأة في اللُعب. وُصِـف الوضع في مناطق بعينها بالإبادة الجماعيـة المتعمدة. أُزهِقت أرواح مليون شـخص مدني. ويلقى الناس هناك حتفهم جوعًا بينما أنا أكتب الآن، ولكن لم تُشنَ حملات عامة كبرى حول ذلك. لم يُفتَح قلب العالم للضحايا في أفغانستان حيث توجد حكومة دُمية يحركها الاتحاد السوفيتي؛ ولكن قلب العالم مفتوح لـ"إثيوبيا" الخاضعة أيضا لحكومة دُمية يحركها الاتحاد السوفيتي.

ظل الناس يلقون حتفهم بسبب المجاعة في جميع الدول الواقعة بمنطقة السـاحل في أفريقيا لعقد من الزمان أو يزيد، ولكن لم ينطلق هذا الاهتمام، ولم يتحرك الناس بكرم وتعاطف إلا مؤخرًا. ولكن لِمَ لا؟ هذا على الأقل سؤال مثير نطرحه.

وإن كان البعض سيرى أن إثارة السؤال قسوة، أو على أحسن تقدير افتقار للذوق.

يبدو لي أكثر فأكثر، أننا نخضع إلى موجات من العواطف الجماعية، ولا يكون ممكنًا طوال فترة بقائها إثارة أسئلة هادئة جادة. وليس على المرء أثناءها سوى إغلاق فمه والانتظار، فكل شيء يمر... ولكن هذه الأسئلة الهادئة الجادة وإجاباتها الهادئة الجادة المتجردة عساها في الوقت ذاته أن تُنجينا.

وأنا أنظر إلى حياتي التي استمرت الآن ستة وستين عامًا، فما أراه هو تعاقب أحداث جماعية كبرى، فورانات للمشاعر، انفعالات متحيزة وجامحة، تمر وتمضي، ولكن أثناء بقائها، لا يكون في وسعك سوى التفكير في أن: "هذه الشعارات، أو الاتهامات، أو الادعاءات، أو نفخ الأبواق، ستبدو قريبًا للجميع شيئًا سخيفًا بل ومُخجِلا". ولكن من غير الممكن قول ذلك أثناءها.

وُلِدتُ نتيجة للحرب العالمية الأولى التي ألقت بظلالها على طفولتي. كانت المشاعر القومية أثناء هذه الحرب بدائية وحقيرة وغبية حتى إننا نسمع الشباب اليوم يتساءلون: "كيف لهم أن صدقوا ذلك؟ لماذا اقتتلوا؟"

أما قدوم الحرب العالمية الثانية فقد ألقى بظلاله عليّ وأنا أدرك طور الشباب. وكانت زيجتايّ نتيجة لهذه الحرب – التي تسبب فيها معتوه هائج هاذٍ.

تأججت الشيوعية في روسيا، قتلت ودمرت. ورغم ذلك، شاعت لفترة من الوقت مشاعر التَحَزُّب والتَعَصُّب الجارفة لهذه الثورة في كل مكان، وجعلت من المتعذر أن تفكر بشكل صحيح. ولايزال ذلك متعذرًا على بعض الناس في بعض الأماكن.

احتدمت الصين في ثورة، ثم احتدمت مرة أخرى في الثورة الثقافية وأرجعت البلد إلى الوراء جيلًا. ولكن أثناء نشاط هذه الدوامات أو الزلازل أو البراكين الاجتماعية الكبرى لا يمكن للأطراف المشاركين فيها التحدث بالعقل أو طرح أسئلة أو الاعتراض.

حركة جماعية كبرى في أعقاب أخرى، كل منها حزمة من الآراء الجماعية: من أجل الحرب، ضد الحرب، ضد الحرب النووية، من أجل التكنولوجيا، ضد التكنولوجيا. وكل منها يُولِّد حالة ذهنية معينة: عنيفة أو عاطفية، أو مُتحزِّبة، ودائمًا تقمع الحقائق التي لا تلائمها، وتكَذِب، فتجعل من المستحيل التحدث بنبرة منخفضة معتدلة هادئة رشيدة، وأخالها الوحيدة التي يمكن أن تؤدي بنا إلى الحقيقة.

ولكن، بالتوازي مع كل هذا التأجج والفوران، تتواصل في الوقت ذاته تلك الثورة الأخرى: الثورة الهادئة، التي تقوم على الملاحظة الرصينة الدقيقة لأنفسنا ولمسلكنا وقدراتنا. ففي ألف جامعة أو مختبر أو في حالات بحثية تُختلَق قصدًا، تُجمع المعلومات التي يمكن، إذا قررنا الاستفادة منها، أن تبدل العالم الذي نحيا فيه. ولكن هذا يتطلب اتخاذ تلك الخطوة المتعمدة

نحو الموضوعية والبعد عن الانفعالية الجامحة، أن نختار عمدًا رؤية أنفسنا كما عساه أن يرانا زائر من كوكب آخر.

كما يعني هذا، وأرجو ألا يبدو ذلك طيشًا، أن نختار أن نضحك... فقد اكتشف باحثو غسيل الدماغ والتلقين أن الذين يعرفون كيف يضحكون كانت مقاومتهم أفضل. الأتراك على سبيل المثال...الجنود الذين واجهوا معذبيهم بالضحك نجوا في بعض الأحيان، بينما لم ينج الآخرون. المتعصبون لا يضحكون من أنفسهم، فالضحك بالتعريف هرطقة، ما لم يُوجَّه بقسوة ضد خصم أو عدو. المتزمتون لا يستطيعون الضحك. المؤمنون القُح لا يضحكون. فكرتهم عن الضحك أنه صورة تهكمية ساخرة للتشهير بشخص مُعارِض أو فكرة معارضة. الطغاة والمستبدون لا يضحكون من أنفسهم، ولا يحتملون الضحك عليهم.

الضحك قوة عظيمة، ولا يقدر على الضحك مِن نفسه سوى الشخص المتحضر الحر الطليق.

حين كان شاه إيران لايزال يعتلي عرشه، حدث في قرية في بلاد فارس أن أطلق رجل هادئ راشد ملتزم بالقانون على قطته الجميلة المفضلة اسم "شاهنشاه"، وهو الاسم الذي كان ملوك بلاد فارس العظماء يستحسنون أن يُطلَق عليهم - ملك الملوك. بَلَغَ الأمر رجل شرطة في القرية، فوشى بالرجل سيء الحظ إلى الشرطة السرية وأُلقي به في السجن واختفى الرجل نهائيًا، كما كان يحدث للناس وقتها، ويحدث لهم، بالطبع، تحت حكم الخوميني.

... ذكرتُ هذه الواقعة لبعض مؤيدي النظام القديم، فقالوا لي إن الأمر موجب للسخرية، وإن الشاه نفسه كان سيراه هكذا. وهنا نجد أنفسنا في مواجهة قانون المجتمع وهو ما لا يأخذه واضعو القوانين في الحسبان إطلاقا حين يُصدِّرون لنا القوانين ثم يضطجعون، قانعين أن القانون عادل، وأن المجتمع سليم. المسألة أن الجالسين على رأس الحكومة، أو الديوان، أو الوزارة، أو أي مؤسسة حكومية أو إدارية لا يعرفون أبدًا ماذا يجري على المستويات الأدنى. وهذا يعلل المشهد الذي يحدث يوميًا في جميع الدول في كافة أنحاء العالم، حين يجلس مواطن بسيط، جرى ترهيبه أو تعرض لسوء إدارة أو عُومِل بتعسف، وهو يصغي في ريبة لرجل أو امرأة ذي/ ذات شأن - الرئيس أو صاحب العمل - يعلن أنه من المستحيل حدوث كذا تحت إدارته، أو تحت حُكمه أو حكمها، لأن شيئًا كهذا سيكون ضد القوانين ولا يمكن التهاون فيه. كم من مرة جلسنا أنا أو أنت وشاهدنا أو سمعنا، مذهولين هذا المشهد في التليفزيون أو الراديو، "لا بالتأكيد، رجال الشرطة "تبعي" لا يضربون مَنْ لا حول لهم ولا قوة في الزنزانات، ولا يلفقون التهم للأبرياء، المسؤولون "تبعي" طبعًا لا يرهبون الضعفاء، ولا يَرْتَشُون، إن ظلمًا شنيعًا كالذي تصفه لا يمكن طبعًا أن يحدث". ولكنه يحدث، وما زال يحدث، لأن الموجودين على القمة، كما ذكرتُ، لا يعرفون ما يجري تحتهم. في بعض الأحيان يجد المرء نفسه مضطرًا لأن يظن في تهكم أنهم لا يريدون أن يعرفوا...

مهما يكن من الأمر، فهم عاجزون بوضوح أمام هذه الآلية التي تكفل

معاملة الناس في قاع المجتمع معاملة سيئة في كل بلد من البلدان التي عشتُ فيها أو زرتُها أو قرأتُ عنها. أليس في الإمكان فعل شيء حيال ذلك؟ أجل، لا يمكن عمل شيء حتى نصل إلى النقطة التي يمكننا فيها الاعتراف بأن الأمر هكذا، وسيظل الأمر هكذا ما لم تكن هناك إجراءات وقائية.

في بعض البلدان في العصور القديمة استخدموا آلية للمراقبة، يُنشئها الملوك الذين كانوا سلطات ذلك الزمان. كان يُعيِّن موظفون حكوميون مهمتهم التجول والتظاهر بأنهم مواطنون عاديون لمراقبة سلوك المسؤولين. وإذا وجدوا مسؤولاً غبيًا أو عدوانيًا أو متحكمًا أو ظالمًا، يُعزل من وظيفته. ولم يكن في وسع أي مسؤول في أي مكان معرفة ما إذا كان الشخص الماثل أمامه، الذي يبدو لا حول له ولا قوة، ليس مفتشًا حكوميًا متنكرًا. وبالتالي كان المسؤولون يتصرفون باهتمام أكبر، وأمكن الحفاظ على مستوى مرتفع للخدمات العامة.

لا يمكن تطبيق هذه الحيلة لتحسين الإدارة إلا إذا استطاعت الإدارات المسؤولة النظر بهدوء شديد إلى نفسها، وتشخيص حالتها، ووصف العلاج لها.

لا يوجد ما يمنعنا من فعل الشيء نفسه.

عقل الجماعة

في الغرب، في المجتمعات التي تُوصَف بالغربية، أو بالعالم الحر، قد يكون الناس متعلمين بصورة أو بأخرى، ولكنهم جميعًا يطلون علينا بفكرة عن ذاتهم تصب في هذا المعنى: أنا مواطن في مجتمع حر، وهذا يعني أن لي شخصيتي الفردية، وأني أقوم باختيارات فردية، وعقلي ملكي، وآرائي من اختياري، ولي حرية فعل ما أشاء، والضغوط عليّ - في أسوأ الأحوال- ضغوط اقتصادية، مما يعني أنني قد أكون أفقر من أن أفعل ما أريد.

قد تبدو هذه الأفكار كاريكاتورية، ولكنها لا تنأى كثيرًا عن الكيفية التي نرى بها أنفسنا. وهذه الصورة لم نكتسبها بوعي، بل هي جزءٌ من مناخ عام أو مجموعة من الافتراضات تؤثر على أفكارنا عن أنفسنا.

يعيش الناس في الغرب طيلة حياتهم وربما لا يفكرون أبدًا في تحليل هذه الصورة التي تُرضيهم تمامًا، وبالتالي نجدهم عاجزين أمام جميع أشكال وسبل الضغط عليهم من أجل الامتثال والتوافق.

نعيش حياتنا جميعًا، في واقع الأمر، في جماعات: الأسرة، وجماعات العمل، وجماعات اجتماعية، ودينية، وسياسية. ولا يشعر بالسعادة في العزلة سوى قلة ضئيلة من البشر، ويظنهم جيرانهم غريبي الأطوار أو أنانيين، أو ربما أسوأ من ذلك. لا يحتمل أغلب الناس البقاء بمفردهم لفترة طويلة، بل يبحثون دائمًا عن جماعات للانتماء إليها، وحين تنفضّ واحدة يبحثون عن أخرى. فنحن ما زلنا حيوانات جماعية، ولا ضرر في ذلك، فالخطر ليس في الانتماء إلى جماعة، أو جماعات، بل في عدم إدراك القوانين الاجتماعية التي تحكم الجماعات وتحكمنا.

حين نكون في جماعة ما، فإننا نجنح للتفكير كما تفكر الجماعة: بل ربما أننا التحقنا بها بحثًا عن أناس "متشابهين في المزاج والتفكير". ولكننا نجد أيضًا أن تفكيرنا يتبدل بسبب انتمائنا إلى جماعة ما. ومن أشق الأمور في الدنيا أن تُبقِي على رأي فردي مخالف وأنت عضو في جماعة.

لا شك أننا جميعًا خبرنا ذلك - ونأخذه كأمر مُسلَّم به، وربما لم نفكر فيه إطلاقًا، رغم أن كمًا كبيرًا من التجارب أُجري بين الإخصائيين النفسيين والاجتماعيين حول الموضوع عينه. ولو أنني شرحت تجربة أو اثنتين منها، لتذمر مَنْ يسمعها إن كان إخصائيًا نفسيًا أو اجتماعيًا قائلا "يا إلهي، كفى"،

لأنهم سمعوا بهذه التجارب الكلاسيكية مرارًا وتكرارًا. ولكن ظني أن سائر الناس لم يعلموا بها أبدًا، ولم تُطرَح هذه الأفكار أمامهم قط. وظني - إن كان صحيحًا - يوضح جيدًا الموضوع الذي أطرحه والفكرة العامة وراء هذه المقالات، وهي إننا (الجنس البشري) نمتلك الآن كمًا كبيرًا من معلومات عن أنفسنا، لا سبيل لإنكارها، ولكننا لا نستخدمها لتحسين مؤسساتنا وبالتالي حياتنا.

والاختبار التالي واحد من الاختبارات أو التجارب النمطية حول هذه المسألة: يأتي الباحث بمجموعة من الأشخاص ويُطلِعهم على التجربة، ويترك أقلية من شخص أو شخصين على جهل تام بما يجري. ثم يختار موقفًا ما يتطلب قياسًا أو تقديرًا، مثل مقارنة أطوال قطع من الخشب لا تختلف عن بعضها إلا اختلافات بسيطة، ولكنها تكفي للملاحظة، أو مقارنة أشكال لها تقريبًا الحجم نفسه. تؤكد الأغلبية في المجموعة - بناء على توجيهات - بعناد أن الأشكال أو الأطوال هي نفسها، بينما يؤكد الشخص أو الشخصان اللذان تُركا دون تعليمات أن قطع الخشب، أو أيًا ما كان، مختلفة. ولكن الأغلبية تواصل الإصرار على أن الأسود أبيض - علي سبيل المجاز - وبعد فترة من الانزعاج والاستثارة وحتى الغضب، وبالتأكيد عدم الاستيعاب، سوف تساير الأقلية الجماعة. وهذا ليس دائمًا، بل يكاد أن يكون دائمًا. ثمة في الواقع مُتفرِّدون أجلاء يصرون بعناد على قول الحقيقة كما يرونها، ولكن النسبة الأعظم ترضخ لرأي الأغلبية، وتذعن للسياق العام.

وعنـد وضـع الأمر بهذه الصراحة ودون مجاملة، تأتي ردود الفعل غير مُصدِّقة: "أنا قطعًا لم أكن لأرضخ، سـأقول مـا أراه..." ولكن هل تفعل حقًا؟

قد يوافق مَنْ جربوا الانضمام إلى جماعات كثيرة، ممن راقبوا سـلوكهم الخاص، على أن أشق أمر في العالم هو الخروج ضد جماعة ينتمي إليها الفرد، جماعة الأقران. ويتفـق كثيرون على إن مِن بين أكثر ذكرياتنا خزيًا هو كم مِن مرة قلنا إن الأسود أبيض لأن الآخرين كانوا يقولون ذلك.

بعبارة أخرى، نحن نعرف أن هذا حقيقي عن السلوك الإنسـاني، ولكن كيف نعرفه؟ فأن نقر به على نحو مبهم ومنزعج (والذي ينطوي على الأمل ألا نوضع مرة أخرى أبدًا في موقف اختباري كهذا) شيء، وأن نتخذ تلك الخطوة الهادئة نحو نوع من الموضوعية شيء آخر تمامًا، فنقول: "أجل، إذا كان هذا هو حال بني الإنسـان، وأنا من بينهـم، فلنُقرّ به إذن، ونبحثه ونعدّ مواقفنا بناء عليه".

ولا تعني آلية الإذعان للجماعة الانقياد أو الخضوع لجماعة صغيرة، أو شديدة التحديد كديانة أو حزب سياسي فحسب، بل تعني أيضًا الامتثال لتلـك المجموعات العريضة المبهمـة غير محددة المعالم من البشر ممن قد لا يظنون في أنفسهم أبدًا أن لهم عقلاً جماعيًا إذ أنهم واعون بوجود اختلافات في الرأي بينهـم - ولكنها اختلافات تبدو ثانوية تمامًا لمن خارج الجماعة، أو من ثقافة مختلفة. فالفرضيات والمؤكدات الأساسية للجماعة لا تُناقَش

مطلقًا، ولا تُعارَض قط، بل من المحتمَل ألا تُلاحَظ أصلا، والفرضية الأساسية تكون تحديدًا هي: هذا عقل جماعي، مُقاوِم بشدة للتغيير، ومجهز بفرضيات مقدسة لا يمكن النقاش حولها.

حيث إن الأدب هو مجالي، ففيه أجد أمثلتي بسهولة أكبر. أعيش في لندن، ولا أظن أن المجتمع الأدبي هناك يرى نفسه عقلاً جمعيًا - هذا تعبير ملطف - ولكن هذا ما أعتقده فيه. ثمة بضع آليات تُؤخذ كأمر مسلم به بما يكفي لأن نستشهد بها ونتوقعها. هناك على سبيل المثال ما يطلق عليه "قاعدة السنوات العشر"، التي تحدث عادة عندما يرحل كاتب أو كاتبة، فتفقد أعماله أو أعمالها الإقبال عليها أو الاهتمام بها، ثم تعود مرة ثانية. أن نظن على نحو مبهم أن هذا من المرجح حدوثه شيء، وأن نتساءل هل هو مفيد؟ هل لابد له أن يحدث؟ شيء آخر. وثمة آلية أخرى ملحوظة بقوة وهي أن يفقد كاتب الإقبال عليه لعدة سنوات وهو لا يزال على قيد الحياة، ويكاد لا ينتبه إليه أحد - ثم فجأة يجذب الانتباه ويُمتَدح. وذلك كحالة الكاتبة "جين رايس" التي عاشت سنوات طويلة في البلد، ولم يذكرها أحد أبدًا، وكان عساها أن تكون قد رحلت، بل لقد ظن أغلب الناس ذلك، وكانت في أمَسّ الحاجة إلى صداقة وعون لم تجدهما لفترة طويلة من الزمان. ثم، بسبب جهود ناشر نافذ البصيرة، انتهت من روايتها "بحر ساراكوزا الهائج"، وعلى الفور ظهرت في الصورة مجددًا. ولكن، وهذا ما أبغي قوله - كل كتبها السابقة التي لم يذكرها أو يقدرها أحد، جرى فجأة تذكرها والإطراء عليها. لماذا لم تُمتدح إطلاقًا طوال تلك الفترة من

التجاهل؟ أجل، لأن العقل الجمعي يعمل على هذا النحو - أتبع قائدي، الجميع يقولون الشيء عينه في الوقت عينه.

يمكن القول بلا شك إن الأمر لا يعدو أن يكون "هكذا هي الحياة". ولكن هل لابد أن يكون الأمر هكذا؟ إذا كان لابد، فعلى الأقل يمكننا توقعه، وفهمه ووضعه في الحسبان. ربما لو كان الأمر معلومًا كآلية لتُيسِّر على النقاد أن يكونوا أكثر شجاعة وأقل اتباعًا للقطيع في أحكامهم.

هل لا بد أن يخشوا ضغط جماعة الأقران إلى هذا الحد؟ ألا يرون حقًا أنهم يرددون ما يقوله الجميع؟

يمكننا مراقبة كيف تنطلق فكرة أو رأي أو حتى عبارة، وتتكرر في مائة تحليل أدبي، ومقال نقدي، وحوارات - ثم تتلاشى. في خلال ذلك، يكون كل مَنْ أقدم على تكرار هذا الرأي أو تلك العبارة ضحية شعور قسري لأن يكون مثل الجميع. لم يحلل أحد ذلك قط، أو ليس من قِبلهم، رغم أن مَنْ هم خارج الجماعة يرونه بسهولة.

هذه الآلية هي بالتأكيد ما يعتمد عليها الصحفيون لدى زيارتهم لبلد ما. فهم يعلمون أنهم لو أجروا القاءات مع عينة صغيرة من الناس من نمط معين، أو جماعة أو طبقة معينة، فهذان الشخصان أو الثلاثة سيمثِّلون جميع الآخرين، حيث إنه في أي وقت من الأوقات، يقول الناس كافة، من أي جماعة أو طبقة أو نمط، الأشياء عينها، بالألفاظ عينها.

توضح تجربتي عندما كتبتُ باسم "جين سومرز" هذه الأمور، وأمور أخرى غيرها، ولكن الوقت لا يتسع هنا للأسف لسرد القصة على الوجه الأكمل. كتبتُ كتابين تحت اسم آخر هو "جين سومرز"، وسلمتهما للناشرين كما لو كانا لكاتبة مغمورة. قمت بذلك بدافع الفضول والرغبة في إلقاء الضوء على جوانب معينة من آلة النشر، والآليات التي تحكم كتابة التحليلات النقدية. رفض ناشراي الاثنان الأساسيان الكتاب الأول، وهو رواية "مذكرات جارة طيبة"، وقبِله ناشر ثالث، وأيضا ثلاثة ناشرين أوروبيين. أُرسِل الكتاب عمدًا إلى جميع من يعدُّون أنفسهم خبراء في أعمالي، ولكنهم لم يتعرفوا عليّ فيه. أخيرًا، كُتِب عن الرواية، كما يُكتَب عن معظم الروايات الجديدة، بإيجاز وغالبا بتفضل وتعالٍ، وكادت تختفي إلى الأبد مُخلِّفَةً وراءها بضع رسائل من معجبين، كان بعضهم من بريطانيا والولايات المتحدة مما أدهش القليلين الذين كانوا على دراية بالسر لأن أحدًا لم يُخمِّن الأمر. ثم كتبتُ الكتاب الثاني بعنوان "إن استطاع الكبار"، وبالمثل لم يخمن أحد. ظل مَنْ يعرفون القصة يرددون لي: "كيف يمكن ألا يخمن أحد؟ لو أني لا أعلم لكنتُ خمنتُ على الفور". لا أدري، ربما. وربما أننا جميعًا نعتمد على أسماء العلامات التجارية والتغليف أكثر مما نظن في أنفسنا. قبل أن أبوح بالحقيقة مباشرة سألني أحد المحاورين في الولايات المتحدة عما أظنه سيحدث. قلتُ إن المؤسسة الأدبية البريطانية ستغضب وتقول إن الكتابين لم يكونا جيدين، ولكن كل مَنْ عداهم ستسره التجربة. وهذا بالضبط ما حدث. تلقيتُ عددًا كبيرًا من خطابات التهنئة من كُتَّاب وقُراء

ممن أمتعتهم الدعابة - ومقالات نقدية فظة وغليظة. على أية حال، ظهر الكتابان في فرنسا ودول إسكندنافيا باسم "مذكرات جين سومرز" بقلم "دوريس ليسنج". وقلما حظيتُ بتحليلات نقدية في جودة ما حظيتُ به في فرنسا ودول الإسكندنافيا عن كتابيّ "جين سومرز". ويمكننا، بالطبع، أن نخلص بأن النقاد في فرنسا ودول إسكندنافيا لا يتمتعون بذوق جيد، بينما البريطانيون يتمتعون به!

كانت القصة كلها مسلية جدًا، ولكنها أشعرتني في ذات الوقت بالحزن والحرج بشأن مهنتي. هل لابد أن يكون كل شيء دائمًا متوقعًا هكذا؟ هل لابد حقًا أن يكون الناس كالقطيع هكذا؟

ثمة بالتأكيد عقول أصلية غير مقلِّدة، أولئك الذين ينهجون نهجهم الخاص، ولا يقعون فريسة الحاجة لأن يقولوا أو يفعلوا ما يفعله الآخرون، ولكنهم قلة. قلة قليلة جدًا. وعليهم تتوقف صحة وحيوية جميع مؤسساتنا، وليست الأدبية وحدها التي استوحيت منها أمثلتي.

لوحظ أن نسبة 10% من السكان هم مَنْ يمكن أن يُطلق عليهم قادة بالفطرة، الذين يتَّبعون عقولهم الخاصة في قراراتهم واختياراتهم. وقد لوحظت هذه الحقيقة بدرجة كبيرة حتى أنها أُدرِجت ضمن التعليمات التي تصدر للقائمين على السجون أو معسكرات الاعتقال أو معسكرات أسرى الحرب: أزيحوا الـ10%، وسيصبح المسجونون خائري العزم وممتثلين.

يعود بنا ذلك بلا شك إلى فكرة النخبوية، وهي الفكرة غير الرائجة

ولا المحبَّذة، حتى أنه في مجالات السياسة الواسعة، وحتى في التعليم، ثمة معارضة لفكرة أن البعض ربما يكونون بالفطرة أفضل استعدادًا عن غيرهم. ولكني سأعود إلى موضوع النخبوية فيما بعد. في الوقت ذاته، ربما نلاحظ أننا جميعًا نشعر بالثقة والاحترام لفكرة الشخص المنعزل المتفرد في سلوكه الذي لا يأبه بالانصياع للأنماط السائدة. وهو الموضوع المتكرر للأفلام الأمريكية في نموذجها الأصلي - كفيلم "السيد سميث يذهب إلى واشنطن" على سبيل المثال.

اِنظرْ كيف يتبنى الجميع موقفًا ما إزاء كاتب أو كِتاب معين. الكل يقول الأشياء عينها، تقريظًا أكانت أم تثريبًا، إلى أن يحدث تبدل في الرأي، والذي قد يكون جزءًا من تحُّول اجتماعي أوسع، كالحركة النسائية على سبيل المثال. فثمة دار نشر مقدامة ونشيطة اسمها "فيراجو" تديرها نساء، أعادت تقييم عدد كبير من الكاتبات اللاتي جرى تجاهلهن أو لم يؤخذن بجدية. وقد يحدث التبدُّل، في بعض الأحيان، بسبب وقوف أحد الأشخاص ضد تيار الآراء السائد، ثم يحذو الآخرون حذوه، أو حذوها، فيتحول بعدها الموقف الجديد إلى موقف عام.

يستغل الناشرون هذه الآلية طوال الوقت بلا شك. فعندما يحين وقت إطلاق كاتب جديد أو طرح رواية جديدة، يبحث الناشر عن كاتب له ثقله لمدحه. ولأن "شخصًا ذا اسم" يقول إن العمل جيد، يُحاط المحررون الأديبون علما، ويُطلَق الكتاب. ويمكننا ببساطة رؤية هذه الآلية وهي تعمل

فينا نحن أنفسنا: فإذا قال شخص نحترمه إن الشيء الفلاني جيد، يصعب أن نختلف معه إذا رأينا عكس ذلك. وقياسًا على ذلك، يكون الاختلاف أشق إذا قال عديد من الناس إنه جيد.

أما في الفترات التي تكون خلالها بعض المواقف بسبيلها إلى التحول والتبدل، يمكننا ببساطة ملاحظة آلية المراهنة على الجانبين على سبيل الحيطة. فنجد ناقدًا أدبيًا يكتب مقالاً متوازنًا في لطف يقف فيه بين احتمالية وأخرى، يُصاحِبه في أغلب الأحوال نبرة خفيفة عارِفة مهذبة. وتُستخدَم هذه النبرة الخاصة كثيرًا في الإذاعة والتليفزيون عند مناقشة مواضيع مُلتبِسة. على سبيل المثال عندما كان يُعتَقد في استحالة إنزال إنسان على القمر، وهو ما قاله الفلكي الملكي(*) قبل حدوثه بسنوات قليلة. تلك النبرة الخفيفة الساخرة الناكرة تفصل المتحدث عن الموضوع: فيخاطب، أو تخاطب، المستمع أو المشاهد، كما لو كان الأمر فوق مستوى الأغبياء الذين يصدقون أنه بإمكاننا إنزال رجال على القمر، أو أن هناك وحوشًا في بحيرة "لوخ نِس" أو "بحيرة شامبلين"، أو أن... أكملوا أنتم الاحتمال المحبب إليكم.

حالما تَعَلَّمنا رؤية هذه الآلية وهي سارية المفعول، سنرى كيف لا تخلو منها سوى أوجه قليلة من الحياة. تأتي جميع الضغوط الخارجية تقريبًا من

(*) الفلكي الملكي (Astronomer Royal): منصب رفيع من مناصب البلاط الملكي البريطاني، يتم استحداثه في عام 1675، عقب تأسيس الملك تشارلز الثاني للمرصد الملكي في "جريتش"، واستمر حتى عام 1972، ثم أصبح بعدها منصبا شرفيا. (المترجمة، المصدر: ويكيبيديا).

حيث معتقدات الجماعة، واحتياجات الجماعة، والاحتياجات الوطنية، وحب الوطن، ومتطلبات الولاءات المحلية، مثل الولاء لمدينتك وللجماعات المحلية من مختلف الأشكال. ولكن هناك أيضًا ضغوطًا أكثر تسللاً وأكثر تطلبًا - وأكثر خطورة - وهي الآتية من الداخل، تلك التي تحثك على ضرورة الامتثال واتباع النمط السائد، وهي الأصعب في الملاحظة والسيطرة عليها.

زرتُ "الاتحاد السوفييتي" منذ عدة سنوات، في واحدة من تلك الفترات التي فُرضت فيها رقابة أدبية شديدة للغاية. كان الكتّاب الذين قابلناهم يقولون إنه لم يكن ثمة داعٍ للرقابة على أعمالهم لأنه نما لديهم ما أطلقوا عليه اسم "الرقابة الداخليةّ". أما أنهم قالوا ذلك بفخر فقد صَدَمنا نحن القادمين من الغرب، وكانت صدمتنا لكونهم سُذَّجًا إلى هذه الدرجة حول هذا الأمر، إذ كانوا مُنْبَتّي الصلة بالمعلومات التي توفرها التطورات في علمي النفس والاجتماع. فهذه "الرقابة الداخلية" هي ما يطلق عليه علماء النفس "استدماج"(*) الضغط الخارجي - كأحد الوالدين مثلاً - فيصبح الموقف الذي قاومته وكرهته من قبل هو موقفك أنت.

يحدث هذا طوال الوقت، ولكن غالبًا يتعذَّر على الضحايا أنفسهم إدراكه.

(*) "internalization": استدماج (استيعاب وتبني وتشرب الفرد لسلوك ومعايير وقيم الجماعة والمجتمع). المصدر: قاموس علم النفس، الدكتور حامد عبد السلام زهران.

هنـاك تجارب أخرى أجراها إخصائيـو علمي النفس والاجتماع تبرز مجموعة الخبرات التي نخلع عليها الاسـم الشـعبي "الطبيعة الإنسانية"، وهي تجارب حديثة أُجريت، فلنقل، في العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة، بعضها رائدة وجوهرية تولدت عنها تجارب عديدة أخرى على النهج ذاته - وهي كما ذكرتُ من قبل، معروفة تمامًا للمتخصصين ومجهولة للسـواد الأعظم من الناس.

إحدى هذه التجارب معروفة باسم تجربة "ميلجرام"، واخترتها تحديدا لأنها كانت ولاتزال مثيرة للجدل، ولأنها نوقشـت على نحو مـسـتفيض، ولأن جميع المتخصصين في المجال ربما يتأوهون لمجرد سماع اسمها، ورغم ذلك، لم يسمع عنها بالمرة أغلب الناس خارج التخصص. ولو أنهم عرفوا بها، وكانوا على دراية بالأفكار التي وراءها، لكان عسانا فعلًا أن نصل إلى شيء. كان الدافع وراء تجربة "ميلجرام" هو الفضول لمعرفة كيف أن أناسًا عادين طيبين مهذبين، مثلي ومثلك، سوف يقومون بأعمال بشعة إذا أُمروا بعملها - على نحو ما فعل العدد الذي لا يُحصى من المسؤولين تحت حكم النازي، الذين قالوا كذريعة إنهم "كانوا يطيعون الأوامر ليس إلا".

وضع الباحث أشـخاصًا أُختيروا عشـوائيًا في غرفـة، وأخبرهم أنهم سيشاركون في تجربة. قُسّمت الغرفة إلى قسمين بستار بحيث يمكن لكل قسـم سماع القسـم الآخر دون رؤيته. في القسـم الثاني من الغرفة جلس متطوعون يبدو كأنهم موصولون بسلك إلى ماكينة تصدر صدمات كهربائية

ذات كثافة متزايدة تصل إلى حد الموت، كالكرسي الكهربائي. تشير إليهم الماكينة كيف يتعين عليهم الاستجابة إلى الصدمات - بهمهمات، ثم أنات، ثم صرخات، ثم توسلات بضرورة إنهاء التجربة. يظن الشخص في القسم الأول من الغرفة أن الشخص في النصف الثاني موصلا بالفعل إلى الماكينة. يُقال له إن مهمته أو مهمتها هي إصدار صدمات كهربائية شديدة متزايدة وفقًا لتعليمات مَنْ يُجري الاختبار، وأن يتجاهل صرخات الألم والتوسلات الصادرة من الجانب الآخر من الستار. اثنان وستون بالمائة ممن أجري عليهم الاختبار استمروا في إصدار الصدمات حتى مستوى 450 فولت. عند مستوى 285 فولت، يصدر الشخص الخاضع للتجربة صرخة عذاب شديد ثم يصمت. كان الذين يصدرون ما يظنون أنه في أفضل الأحوال جرعات كهربائية مؤلمة للغاية، يشعرون بتوتر شديد، ولكنهم يواصلون مهمتهم. بعد التجربة، لم يصدق معظم المشاركين أنهم قَدِروا على مثل هذا السلوك. قال بعضهم: "أجل، كنت أنفذ التعليمات فحسب".

تتيح لنا هذه التجربة - مثلها مثل تجارب كثيرة أخرى في الاتجاه نفسه - معرفة أن غالبية البشر، بغض النظر عما إذا كانوا سودًا أو بيضًا، ذكورًا أو إناثًا، كبارًا أو شبابًا، أغنياء أو فقراء، سينفذون الأوامر، مهما كانت وحشية وقاسية. باختصار، هذا الإذعان للسلطة ليس سمة الألمان تحت حكم النازي، بل جزء من سلوك إنساني عام. يدرك ذلك مَنْ كانوا في حركة سياسية في أوقات توتر شديدة، ومن يتذكرون كيف كانوا أيام الدراسة... ولكن تحمُّل عبء المعرفة وأنت نصف واعٍ بها، وربما خجلان منها، آملا

أن تمر إن تجاهلتها شيء، والقول بصراحة وهدوء وتعقل: "أجل، هذا ما يجب علينا توقعه في ظل هذه وتلك الحزمة من الظروف" شيء آخر.

هـل يمكننا تخيل تدريـس ذلك في المدارس؟ وتعليمـه للأطفال؟ أن نقول لهم: "عندما تكون في هذا أو ذاك النمط من المواقف، ستجد نفسك، إن لم تكن حريصًا، تتصرف كالوحش الهمجي إن أُمرتَ بذلك. احترس من هذه المواقف. يجـب أن تكون يقظًا في مواجهة ردود فعلك وغرائزك الأشد بدائية".

مجال آخر من التجارب يهتم بأفضل الطرق التي يتعلم بها الأطفال في المـدارس، وتأتي بعض النتائج مخالفة تمامًا لبعض الفرضيات الحالية التي نُقدِرها بشـدة، كالقول، على سبيل المثال، بأنهم لا يتعلمون أفضل عندما يكونون "مهتمين" أو "عند تحفيزهم" بل عندما يكونون ضجرين. وبغض النظر عن ذلك - من المعلوم أن الأطفال يتعلمون أفضل على يد المعلم الذي يتوقع منهم أن يتعلموا جيدًا. وأغلبهم سيؤدون أداءً سيئًا إذا توقعنا منهم القليل. نعرف أنه في الفصول المشـتركة بين البنين والبنات، يقضي أغلب المعلمين - دون وعي تمامًا - وقتًا أكبر مع الأولاد عن البنات، ويتوقعون إمكانات أكبر منهم، مما يقلل باسـتمرار من قـدرة البنات. وفي الفصول المختلطة، يقوم المعلمون البيض - دون وعي أيضًا - بتقليل شأن الأطفال غير البيض، ويتوقعون منهم الأقل، ويخصصون لهم وقتًا أقل. هذه الحقائق معلومة - ولكن أين جرى إدراجها؟ وأين أُستخدِمت في المدارس؟ في أي

مدينة من المدن يُقال للمعلمين شيئا كهذا: "بوصفكم معلمين، عليكم أن تعوا هذا، إن الاهتمام واحد من أقوى وسائلكم التعليمية. الاهتمام - تلك الكلمة التي نصف بها مستوى معينًا من الاحترام، ومن اليقظة والاكتراث بشخص ما - هو ما سيغذي ويُطعِم تلاميذكم". (ويمكنني بالفعل سماع الرد التالي على ذلك: "ماذا تفعل إذا كان لديك ثلاثون طفلاً في الفصل، ما قدر الانتباه الذي يمكنك توجيهه لكل طفل؟"). أجل، أعرف، ولكن إذا كانت هذه هي الحقائق، وإذا كان اهتمام المعلم وانتباهه له كل هذه الأهمية، لابد إذن في مرحلة ما، وبكل بساطة، أن يضع مَنْ يخصصون الأموال للمدارس ولبرامج التدريب الأمر نُصبْ أعينهم هكذا: يزدهر الأطفال عندما يحصلون على اهتمام معلميهم، وعلى توقعاتهم بأنهم سينجحون. لذلك يجب علينا إنفاق ما يكفي من الأموال للقائمين على التعليم لكي يمكنهم توفير الاهتمام الكافي...

وفي مجال غير هذا أجريت تجارب أجري بكثافة في الولايات المتحدة، وفي حدود علمي في كندا أيضًا. منها على سبيل المثال، أن يقوم فريق من الأطباء بما يتسبب في دخولهم مستشفى عقلي كمرضى، دون أن يكونوا معروفين لفريق العمل به. ويبدأون فورًا في إظهار الأعراض المتوقعة من مرضى عقليين، والتصرف في إطار السلوك الموصوف كنموذج للأشخاص المرضى. يقرر جميع أطباء المستشفى دون استثناء أنهم مرضى، ويصنفونهم بطرق مختلفة وفقًا للأعراض الموصوفة، فلا يرى الأطباء النفسيون ولا الممرضات أن المرضى المزعومين أناسٌ طبيعيون تمامًا، ولكن المرضى الآخرين

هم مَنْ يرون ذلك. فهم لا ينخدعون، وهم القادرون على رؤية الحقيقة. وبصعوبة شديدة يستطيع هؤلاء الأصحاء إقناع فريق العمل أنهم ليسوا مرضى، والحصول على إذن بالخروج من المستشفى.

وتجربة أخرى: مجموعة من مواطنين عاديين، باحثين، يختلقون سببًا لدخول السجن، البعض كسجناء عاديين، وقلة منهم كسجَّانين. تبدأ كل مجموعة فورًا في التصرف بما يناسب وضعها: السجَّانون كما لو كانوا سجَّانين حقًا، ذوي سلطة، ويسيئون معاملة السجناء الذين يُظهِرون بدورهم سلوك السجن النمطي، فيصيبهم جنون الارتياب والشك وهكذا. أقر مَنْ قاموا بدور السجَّانين فيما بعد أنهم لم يستطيعوا كبح أنفسهم من الاستمتاع بوضع القوة، والشعور بالسيطرة على الضعفاء. أما السجناء المزعومون، حالما خرجوا من السجن، لم يمكنهم تصديق أنهم سلكوا حقًا على النحو الذي سلكوه.

تصوروا لو أن هذه الأمور تُدرَّس في المدارس؟

دعونا فقط نفترض ذلك للحظة... وسينكشف جوهر الأمر في الحال.

تخيلوا أن نقول للأطفال: "في الخمسين عامًا الأخيرة تقريبًا، أصبح الجنس البشري على دراية بكَم وافر من المعلومات عن آلياته، وكيف يتصرف، وكيف يجب أن يتصرف تحت ظروف معينة. إذا أردنا الاستفادة من ذلك، عليكم أن تتعلموا تأمل هذه القواعد بهدوء وتجرد من الأهواء ومن المصلحة

الشخصية ودون عواطف. إنها المعلومات التي ستطلق سراح البشر من الولاءات العمياء، والانصياع للشعارات، والخطب البلاغية، والزعماء، والعواطف الجماعية". أجل، هذا هو الأمر.

أي حكومة، في أي مكان في العالم، يمكنها في سرور أن تتصور تعليم رعاياها لكي يُحرروا أنفسهم من ضغوط وخِطاب الحكومة والدولة؟ فالولاء المتقد والخضوع لضغوط الجماعة هو ما تستند إليه جميع الدول، بدرجات متفاوتة بطبيعة الحال. في أقصى درجة نجد إيران الخوميني، والطوائف الإسلامية المتطرفة، والبلدان الشيوعية. وفي الطرف الآخر بلدان كالنرويج، التي تحتفل أثناء عيدها الوطني بمجموعات من الأطفال في ملابس بديعة حاملين الورود، وهم يغنون ويرقصون، في مشهد لا أثر فيه لدبابة أو بندقية. من الممتع أن نحاول تخمين: في أي بلد، وأي أمة، متى، وأين، كان لها أن تضطلع ببرنامج يُعلِّم أطفالها أن يكونوا أناسًا يقاوموا الخطب الرنانة، ويفحصوا الآليات التي تحكمهم؟ يمكنني أن أفكر في واحدة فقط - أمريكا في الفترة المُسكِرة لخطاب "جيتيسبيرج"(*). وهي فترة لم تكن لتصمد أمام الحرب الأهلية، لأنه عندما تشتعل الحرب، لا يمكن للبلد تحمُّل كُلفة الفحص المتجرد لسلوكها. عندما تبدأ الحرب، يُجنّ جنون الأمة - ولابد لها أن تُجنّ لكي تبقى على قيد الحياة. عندما أنظر

(*) خطاب ألقاه "أبراهام لينكون" رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في نوفمبر 1863، في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، عند تدشين مقبرة الجنود الوطنية في جتيسبيرج، ولاية بنسلفانيا. ويعد واحدًا من أكثر الخطابات شيوعا في التاريخ الأمريكي. (المترجمة، المصدر: ويكيبيديا).

خلفي إلى سنوات الحرب العالمية الثانية، أرى شيئًا لم يحظ مني حينذاك سوى بشك بسيط، هو أن الكل قد جُنَّ جنونه، حتى أولئك الذين لم يكونوا في ساحة الحرب المباشرة. أنا لا أقصد الاستعداد للقتل والتدمير الذي يتعلمه الجنود كجزء من تدريبهم، بل المناخ العام، سم غير مرئي يتفشى في الأنحاء، فيبدأ الناس في كل مكان يتصرفون على نحو مخالف تمامًا لما يفعلونه في وقت السلم. ثم ننظر وراءنا فيها بعد في ذهول. أحقا فعلتُ هذا؟ صدقتُ هذا؟ وقعتُ في شرك هذه الدعاية؟ ظننتُ أن كل أعدائنا أشرار؟ وأن كل الأعمال التي قام بها وطننا طيبة؟ كيف أمكنني تحمل هذه الحالة الذهنية، يومًا بعد يوم، شهرًا بعد شهر- من تحفز دائم، واستفزاز دائم في اتجاه مشاعر كان عقلي في الوقت نفسه معترضًا عليها في هدوء وإصرار؟

لا أستطيع تخيل أي أمة - أو ليس لأمد طويل - يمكن أن تُعلِّم مواطنيها أن يصبحوا أفرادًا قادرين على مقاومة ضغوط الجماعة.

وبالمثل، لا يوجد أي حزب سياسي يمكنه أن يفعل ذلك. أعرف كثيرًا من الاشتراكيين من مختلف التيارات، وأختبر هذا الموضوع معهم قائلة: تلجأ جميع الحكومات اليوم إلى الإخصائيين في علم النفس الاجتماعي، والخبراء في سلوك الحشود وسلوك الدهماء، لتقديم النصح لهم. الانتخابات تُدار مسرحيًا، القضايا الاجتماعية تُطرح وفقًا لقواعد سيكولوجية الجماهير. القوات المسلحة تستخدم هذه المعلومات، والمحققون والخدمات السرية والشرطة

يستخدمونها. ورغم ذلك، في حدود علمي لا تحظى هذه المواضيع أبدًا حتى بالمناقشة من تلك الأحزاب والجماعات التي تزعم تمثيلها للناس.

حكومات تتلاعب باستخدام معارف ومهارات الخبراء في جانب، وأناس يتحدثون عن الديمقراطية والحرية والتحرر وسائر تلك القضايا في جانب آخر، كأن هذه القيم تُخلَق وتُستبقَى بمحض الحديث عنها، وتكرارها بما يكفي. كيف لا تهتم تلك التي تسمي بالحركات الديمقراطية بتثقيف أعضائها بالقوانين التي تحكم سيكولوجية الحشود وسيكولوجية الجماعات.

عندما أُوجِّه هذا السؤال، تأتي الإجابة دائمًا في صورة إحجام متأفف منزعج، كأن الموضوع برمته منافٍ للذوق ومزعج وغير ذي صلة، وأن كل ذلك سيمضي إذا تجاهلناه.

لذا، إذا نظرنا حول العالم في هذه اللحظة، سنجد المفارقة أن هذه المعلومات الجديدة تدرسها الحكومات ومالكو القوة ومستخدموها بشغف - تُدرَس وتوضع موضع التنفيذ، أما أولئك الذين يقولون إنهم يقفون ضد الطغيان فلا يريدون، فعليًا، أن يعرفوا.



مختبـرات التغييـر الاجتمـاعي

في عـالم يزداد ترويعًا كل يوم، يصعـب أحيانًا رؤية أي شيء إيجابي أو باعث على الأمل. ويكفي الاستماع إلى نشرات الأخبار لكي نظن أننا نعيش في مستشفى للأمراض العقلية.

ولكـن مهلًا... نعلم جميعًا أن الأخبـار تهدف إلى إحداث أقصى تأثير ممكن، وأن الأخبار السيئة أكثر فعالية على إثارتنا من الأخبار الجيدة - وهي في حد ذاتها تعليق مثير على أحوال البشر. تُقرأ علينا الأخبار السيئة بانتظام، يومًا بعد يوم، الأخبار الأسوأ، وأعتقد أن عقولنا تُهيأ أكثر فأكثر للشعور بالاكتئاب والتوجس شرًا.

ولكن هل من الممكن أن يكون كل ما يجري من أمور سـيئة - ولستُ

بحاجة لسردها لأننا نعرفها جميعًا - هو من قبيل رد الفعل؟ هو تيار تحتي ساحب معاكس لحركة أمامية في التطور الاجتماعي الإنساني لا نراها بسهولة؟ ربما. هل من الممكن مثلا أن يقول الناس بعد قرن أو قرنين، عندما ينظرون إلى الوراء: "كان ذلك زمنًا تَصارَعَ فيه النقيضان من أجل الهيمنة. كان العقل البشري يتطور بسرعة كبيرة في اتجاه المعرفة بالذات، والتحكم في الذات، وكما يحدث دائمًا، وكما لابد أن يحدث، استحثت هذه الدفعة إلى الأمام نقيضها، قوى الغباء والوحشية والتفكير الغوغائي؟" أعتقد أن ذلك ممكن. وأظن أن هذا هو الحاصل.

دعونا ننظر إلى شيء مشجع جدًا. خلال العشرين عامًا الماضية أو نحو ذلك، اختارت بضعة بلاد كانت ديكتاتورية واستبدادية أن تتحول إلى الديمقراطية. من بينها: اليونان والبرتغال وإسبانيا والبرازيل والأرجنتين. بعضها في وضع متقلقل - فالديمقراطية دائمًا محفوفة بالمخاطر، ولا بد من الكفاح من أجلها. ولكنَّ بلادًا كانت في قبضة أنظمة فكرية مُحبِطة أحادية النهج اختارت أن تجرب الديمقراطية ذات التوازنات الأكثر تعقيدًا والاختيارات المتعددة.

بعد هذه الحقيقة الباعثة على الأمل، علينا - من أجل التوازن - ذكر حقيقة محزنة وهي أن أعدادًا كبيرة من الشباب - وهم يبلغون سن النشاط السياسي - يتبنون موقفًا أو اتجاهًا أصبح إلى حد كبير جزءًا من عصرنا، وهو أن الديمقراطية مجرد غش وزيف، ومحض قناع للاستغلال،

ولن يكون لهم نصيب فيها. كدنا نصل إلى مرحلة يُتهَم فيها المرء بالرجعية إذا كان يُقدِّر الديمقراطية. وأعتقد أن موقف الشباب هذا سيكون من أكثر المواقف التي تبهر مؤرخي المستقبل. وأقول، بادئ ذي بدء، إن الشباب الذين يروجون لهذا الموقف من الديمقراطية هم في العادة ممن لم يخبروا نقيضها: فمَنْ عاش تحت حكم استبدادي يقدر الديمقراطية.

والأمر ليس أنني لا أفهم ذلك - بل إني أفهمه أكثر مما ينبغي، فقد عشتُ العملية بنفسي. كانت كلمات الديمقراطية والحرية والإنصاف والنزاهة، إلى آخره، تُملى وتُكرر علينا طوال الوقت، ثم فجأة نرى أفظع أشكال الظلم تحيط بنا من كل جانب، ونصيح: "منافقون!". كان ذلك، في حالتي، في "روديسيا الجنوبية"، حيث كانت الديمقراطية للأقلية البيضاء، أما الأغلبية السوداء فلا حقوق لها من أي شكل كان. وعندما يكون الناس في هذه الحالة، ينسون أن الديمقراطية، مهما كانت عيوبها، تحمل إمكانية الإصلاح والتغير، فهي توفر حرية الاختيار، وهي الفكرة الجديدة تاريخيًا. أظن أننا نجنح لأن ننسى كيف أن أفكارًا مثل أن الفرد ينبغي أن تكون له حقوق، وأن المواطن ينبغي أن يكون بوسعه انتقاد الحكومة، هي أفكار حديثة العهد.

حديثة كيف؟ متى ولد هذا المفهوم للمرة الأولى في المجتمع الإنساني؟ هنا يبدأ البعض في الهمهمة حول اليونان القديمة، ناسين أنها كانت دولة عبيد لم تتح سوى حريات دُنيا معينة لأقلية ذكورية. يمكن جدلًا القول

بأمان إن مفاهيمنا عن الحرية وحقوق الفرد ولدت مع الثورة الإنجليزية، ومع الثورة الفرنسية، ومع الثورة الأمريكية. إنها في واقع الأمر أفكار حديثة العهد جدًا، ما زالت هشة، وغير مستقرة أبدًا.

إن فكرة مثل إنه "يجب أن يخوَّل للفرد الحق في حكم القانون"، لم يكن بوسع الناس منذ ثلاثة أو أربعة قرون مضت فَهْم ماذا نعني بها. أما الآن فقد بلغت هذه الفكرة من القوة أن باتت قادرة على إسقاط حكومات قوية وشرسة.

فكرة رسَّخت على ما يبدو أن ثمة شيئًا اسمه حكومة متحضرة، بل أن هناك اتفاقًا على ما هي الحكومة المتحضرة. وإلا كيف أمكن لمواطني الأرجنتين الاتفاق على أنهم يريدون مقاضاة حكومتهم المعزولة بسبب مسلكها القاسي والمؤذي؟ وسلوكها غير اللائق؟ يبدو لي ذلك شيئًا استثنائيًا ومشجعًا للغاية - أن يحدث ذلك أصلاً، ليثبت لنا جميعًا أنه (توجد) في عقل العالم فكرة كيف يجب أن تكون الحكومات. هل حدثت حالة من قبل لمواطنين أرادوا مقاضاة حكومتهم لسلوكها غير اللائق؟ أنا لست مؤرخة، ولكني أظن أن هذا أمر جديد في العالم.

من جانب آخر، قد نرى بلدانًا تأخذ كونها ديمقراطية كأمر مُسلَّم به، فتبتعد عنها، أي عن كونها ديمقراطية إذ إننا نعيش في زمن تعاظمت فيه بشدة قوى التبسيط المفرط - كالشيوعية والإسلام الأصولي. فالاقتصادات الفقيرة تولِّد نظمًا استبدادية.

ولكن الأفكار الجيدة لا تضيع، وإن غُمِرت لفترة من الزمن.

تحدثت على سبيل المثال عما نطلق عليه "العلوم الناعمة"، أي علم النفس الاجتماعي، والأنثروبولوجيا الاجتماعية وباقي العلوم، وما تسهم به في فهمنا لأنفسنا كحيونات اجتماعية، وكيف تتعرض هذه العلوم الحديثة إلى التسفيه والاستعلاء والتقليل من أهميتها. وكما يعلم الجميع، تعاني الأموال العامة في بريطانيا من نقص كبير، وتُغلَق بعض أقسام الجامعات، وتُقلَّص الدراسات بجميع أنواعها. وتأثر هذا اللون من العلم تأثرًا كبيرًا، فهو في أغلب الأحوال أول ما يجري تقليصه - غير أنني قرأتُ لتوي أن عددًا من الجامعات أرجأت الحكم على أقسام علم النفس الاجتماعي والعلوم الاجتماعية وما إلى ذلك نظرًا لفائدتها للصناعة. بعبارة أخرى، هذه العلوم تُثبت جدارتها حين يكون الأمر ذا أهمية.

ثمة أمل آخر، ليس للوقت الحاضر، بل للمستقبل. لا شك أن التحول السيئ الذي تحولته الشيوعية، وإثباتها أنها ليست واحدة من أكثر النظم الاستبدادية دموية فحسب، بل إنها تفتقر أيضًا إلى الكفاءة حتى إن أي نظام آخر، مهما كان سيئًا، يتفوق عليها؛ قد أنسانا أن الشيوعية ولدت من الحلم القديم بالعدالة للجميع. وهو حلم قوي، وقاطرة قوية للتغيير الاجتماعي. وواقع أن الشيوعية في الوقت الحالي أصبحت تعادل الوحشية وانعدام الكفاءة والاستبداد، لا يعني أن فكرة العدالة الحقيقية لن تولد من جديد.

في الوقت نفسه، لا يوجد بلد في العالم إلا وتتشكل بنيته من طبقة مميَّزة وطبقـة فقيرة. توجد دائمًا نخبة من أصحاب السـلطة، وجموع من الناس مُستبعَدة من الثروة ومن أي شكل من أشكال النفوذ السياسي.

في الأوقات التي أكون فيها مُغتمَّة، أفكر مليًا في أن الأمر لم يستغرق من "الاتحاد السوفيتي" الشيوعي سوى جيلين اثنين لكي تنمو فيه نخبة من أصحاب السـلطة تتمتع بالثراء والامتيازات اللتين تتمتع بهما أي نخبة في العالم. ويُقال إن "الصين" الشيوعية تسير في الطريق نفسه، وكذلك بعض الدول الإفريقية الجديدة. فإذا كان من الحتمي بشكل ما، على الأقل في هذا الزمن، أن جميع الأشكال المجتمعية تنتج نخبًا مميَّزة، علينا على الأقل الإقرار بذلك، والعمل على أكبر قدر ممكن من المرونة داخل هذه البنية.

لا توجـد جماعة أو حزب يضع نفسـه في مواجهة الأوضاع السـائدة ولا يرى نفسـه نخبة، سـواء كانت ديكاتورية البروليتاريا برئاسة الحزب الشيوعي، أو جماعات إرهابية، أو أحزابًا سياسية في الدول الديمقراطية، حيث إنها تعلم، بالتعريف، ما الأفضل للجميع.

النخب، الطبقات المميَّزة، الجماعات الأوفر حظًا في التعليم عن غيرها.... هـذه هي المرحلة التي يبـدو عليها العالم الآن، أو على الأقل، لا شيء غير ذلك يبدو منظورًا في أي مكان.

توجد جميع أنواع النخـب، بعضها رجعية وعديمة الفائدة ولا تعمل سـوى ككوابح للتغيير الاجتماعي، والبعض الآخـر منتج كما أعتقد. إذا

قلتُ إني أرى أن النخب والجماعات المميَّزة مفيدة غالبًا، فهذا القول يجعلني رجعية، ولكن الأمر يتوقف على مَنْ تكون النخبة: كما ذكرتُ من قبل، إذا أطلقتَ عليها اسم طليعة البروليتاريا، فذلك يغير الأمور، أليس كذلك؟ أو لو قلتُ إني أعتقد أن الجماعات الحيوية الدافعة وجماعات الضغط لها قيمة لا تقدر بثمن لأنها تحول دون أن يصبح المجتمع خاملاً ولا يتمتع بالنقد الذاتي، فهذا صحيح أيضًا - لا، إن كلمة "النخبة" هي موضع الريبة. أجل، دعونا نطرحها جانبًا: فنحن نحيا في زمن قد يُغتال فيه الناس من أجل كلمة، أو عبارة...

ثمة عملية اجتماعية معينة معروفة وواضحة للغاية، ولكنها لا تلقى الاعتراف الواجب. وهي تحدث على النحو التالي: تقبل أقلية ما بفكرة جديدة (أو فكرة قديمة في ثوب جديد)، في الوقت الذي تصيح الأغلبية: خيانة، هراء، مخبول، شيوعي، رأسمالي، أو أي تعبير آخر للمسبة يُقدِّره ذلك المجتمع. تنمي الأقلية الفكرة، سرًا في أول الأمر، أو على نحو شبه سري، ثم بشكل ظاهر أكثر فأكثر، وتحظى الفكرة بالدعم أكثر فأكثر إلى أن... خمِّن ماذا؟ تصبح هذه الفكرة التحريضية المستحيلة الخاطئة ما يعرف باسم "الرأي السائد"، وتحظى بالحب والتقدير من الأغلبية. في الوقت ذاته، بالطبع، تكون فكرة جديدة أخرى، تحريضية... إلخ أيضًا قد ولدت في مكان ما آخر، ويجري التعهد بها والعمل عليها من جانب أقلية ما. افترض أننا أعدنا تعريف كلمة "نخبة"، للأغراض الحالية، لتعني أي جماعة من الناس تمتلك، لأي سبب كان، أفكارًا تجعلهم يتقدمون الأغلبية؟

حين تصبحون في مثل عمري - كان لابد أن أقول ذلك في موضع ما وستتفقون معي - عندما تصيرون في مثل سني، ستكون مراقبة هذه العملية وهي تحدث في المجتمع على نحو متواصل واحدة من أمتع سبل الترفيه لقضاء الوقت. إنها تسلية محروم منها الجميع فيما خلا قلة قليلة من الشباب الأكثر تأملًا في الأمور، لأن الشباب لا يزال بوسعه بسهولة أكبر الاعتقاد في الدوام والبقاء. ماذا؟ الأفكار الجميلة التي يعتزون بها مقدر لها أن تذهب إلى النفايات؟ بالطبع لا!

نفترض أننا وصلنا إلى نقطة يتفق عندها عدد كافٍ منا على الأقل على أنها عملية تحدث باستمرار - حتى في المجتمعات التي تُحرِّم الأفكار الجديدة - كالمجتمعات الشيوعية - مما يجعل من الحتمي أن تصبح خيانة اليوم هي استقامة الرأي في الغد. ألا يمكن أن يجعلنا ذلك أكثر فعالية مما نحن عليه الآن، وأقل قسوة وشراسة وتأهبًا لمقاومة التغيير؟ أعتقد أنه ممكن، وأظن أنه لابد أن تأتي مرحلة تُستخدَم عندها هذه الآلية، مثلها مثل الآليات الأخرى للمجتمع، بدلا من مقاومتها أو تجاهلها. فلا يمكن تجاهلها سوى ممن لا يدرسون التاريخ.

ويأخذنا ذلك إلى ظاهرة أخرى لافتة للنظر تمامًا في عصرنا، وهي عدم اهتمام الشباب بالتاريخ. ففي دراسة استطلاعية أُجريت مؤخرًا في بريطانيا عما يعده الشباب مواضيع مفيدة للدراسة، جاء التاريخ في ترتيب منخفض للغاية، حيث لم يرَ سوى 7% ممن شملتهم الدراسة أية قيمة لدراسة

التاريخ. وأظن أن من بين أسباب ذلك سببًا نفسيًا، وهذا يسهل رؤيته وفهمه، لا سيما، مرة ثانية، إذا كنتَ قد عشت هذه المرحلة بنفسك. فإذا كنتَ تشعر بشدة أنك "شاب"، وبحكم التعريف تقدمي، أو ثوري أو أيًا ما كان، ولكنك في جميع الأحوال على الجانب الصواب، (حيث الشباب مقابل الكبار الذين هم أغبياء ورجعيون)، سيكون آخر شيء تريده هو النظر إلى التاريخ، حيث ستعلم أن موقف الشباب هذا متكرر دائمًا، وأنه جزء من عملية اجتماعية دائمة. لن تود قراءة شيء يحبط رؤيتك لذاتك كظاهرة مذهلة جديدة مجيدة، أفكارك طازجة، بل لقد صيغت لتوها في الواقع، وربما أنك مَنْ صاغها بنفسه، أو على الأقل صاغها أصدقاؤك، أو القائد الذي تبجله، أفكار جديدة تمامًا لا تشوبها شائبة مُقدَّر لها أن تغير العالم. إذا كنتُ أبدو ساخرة، فإني إنما أضحك على ذاتي الشابة فحسب، هذا هو الأمر.

أعتقد أن هذا الموقف بأن التاريخ لا يستحق الدراسة، سيذهل القادمين من بعدنا وسيرونه أمرًا غريبًا تمامًا.

في نهاية الأمر، إن ما شاهدناه منذ الثورة الفرنسية (وقد يقول البعض منذ الجماعات الطوباوية والاشتراكية في زمن "كرومويل")، قد بلغ حد أن يكون معملًا للتجريب في مختلف أشكال الاشتراكية، ومختلف الأشكال المجتمعية، من حرب الثلاثة عشر عاما لنظام هتلر الذي أطلق على نفسه اسم الاشتراكية القومية، إلى حكومات حزب العمال في بريطانيا، ومن

الدول الشيوعية في روسيا والصين إلى كوبا وإثيوبيا والصومال، وهكذا. وقد تظن أن من يعكفون على إنتاج أنماط مجتمعية جديدة سينقضون على هذه الأمثلة، على ما جرى بالفعل، من أجل التعلم والدراسة.

أكرر قولي إن إحدى طرق النظر إلى القرنين ونصف القرن الماضيين هو أنها كانت معامل للتغيير الاجتماعي. ولكن لكي نتعلم منها، نحتاج إلى مسافة معينة، ابتعاد؛ وهذا الابتعاد هو تحديدًا ما يجعل من الممكن حدوث خطوة إلى الأمام في الوعي الاجتماعي. فالمرء لا يتعلم شيئًا عن أي شيء عندما يكون في حالة اضطراب غاضب أو حماس متحيز.

ينبغي تعليم الأطفال التاريخ، ولكن ليس كما هو الحال الآن من أنه تسجيل لأحداث الماضي البعيد، والتي يتعين على المرء أن يعرفها لسبب أو لآخر. ولكن كقصة لا يتعلم المرء منها ماذا حدث فحسب، بل أيضًا ما قد يحدث، ومن الأرجح أن يحدث، مرة ثانية.

الأدب والتاريخ، هذان الفرعان العظيمان من المعرفة الإنسانية، اللذان يسجلان السلوك الإنساني والفكر الإنساني، يتناقص تقديرهما بين الشباب أكثر فأكثر، وبين القائمين على التعليم أيضًا، رغم أن المرء يمكن أن يتعلم منهما كيف يكون مواطنًا وإنسانًا. يمكن أن نتعلم منهما كيف ننظر إلى أنفسنا وإلى المجتمع الذي نحيا فيه بطريقة رزينة هادئة ناقدة متشككة. هذا هو الموقف الوحيد الممكن لإنسان متحضر، أو هكذا قال لنا كل الفلاسفة والحكماء.

ولكن كل الضغوط تسير في الاتجاه المعاكس، اتجاه تعلُّم ما يفيد فائدة مباشرة فحسب، تعلم ما هو وظيفي. يتجه الطلب أكثر فأكثر إلى تعليم الناس من أجل التوَظُّف في مرحلة من التكنولوجيا تكاد تكون مؤقتة بالتأكيد. متعلّمون على المدى القصير.

علينا النظر مرة ثانية في كلمة "مفيد". فالمفيد على المدى البعيد هو ما يبقى، ما يحيا مجددًا، ما يظهر للحياة في سياقات مختلفة. قد يبدو الآن أن مَنْ تعلموا استخدام أحدث ما وصلنا إليه من تكنولوجيا بكفاءة هم نخبة العالم، ولكني أعتقد أنه على المدى الأبعد سيكون مَنْ تعلموا أن تكون لديهم، أيضًا، وجهة النظر التي اعتدنا على وصفها بأنها ذات نزعة إنسانية - وجهة النظر المتأملة المفكرة الكلية طويلة الأمد - هم من سوف يتبين أنهم الأكثر تأثيرًا، لأنهم ببساطة يفهمون أكثر ماذا يجري في العالم. ولا يعني ذلك أنني أُقلل من شأن الفنيين الجدد، بل بالعكس. فالأمر لا يعدو كون أن ما يعرفونه هو بحكم التعريف ضرورة وقتية.

أعتقد أن كل الدفع والضغط وتطور العالم يتجه نحو الأكثر تعقيدًا، المرن، المتفتح، نحو القدرة على تَقَبُّل العقل لأفكار عدة، متناقضة في بعض الأحيان، في ذات الوقت.

نرى الآن مثالاً للثمن الذي لابد للمجتمع أن يدفعه بسبب الإصرار على التفكير المُستغلِق، المُبسَّط، المليء بالشعارات: "الاتحاد السوفيتي" مجتمع متداعٍ وخارج نطاق الزمن وغير كفء ووحشي، لأن النمط الشيوعي

الذي يتبعه يُحرِّم مرونة الفكر. "الحياة نفسها" - لنستخدم العبارة التي يحب الشيوعيون استخدامها - "الحياة نفسها" تبين ماذا يحدث للمجتمعات التي تسمح لنفسها بالتحجر في أنماط تفكير ميتة. (يحاول الحاكم الجديد جورباتشوف تدارك ذلك). لعلنا نلاحظ كيف يسمح الصينيون لأنفسهم بالتغيير، وهم شعب بارع وعملي دائمًا. ولعلنا نرى كيف يخلق الإسلام الأصولي مجتمعات سيظهر قريبًا ما هي عليه بسبب جمودها، بينما مجتمعات أخرى، أكثر مرونة، وأكثر انفتاحًا، تتقدم السباق.

أعتقد أن السباق، على المدى البعيد، سيكون لصالح البلدان الديمقراطية والمجتمعات المرنة. أعرف أن ذلك يبدو إفراطًا في التفاؤل حين ننظر حول العالم في الوقت الراهن، لا سيما ونحن نرى كيف تُستخدَم المعلومات الجديدة عن الكيفية التي نعمل ونسير بها بمهارة وبلا وازع من الحكومات وأقسام الشرطة، والجيوش، والخدمات السرية - كل تلك الاختصاصات من الإدارة التي يمكن اللجوء إليها للانتقاص من الفرد والسيطرة عليه.

في يقيني أنه الفرد دائمًا، على المدى البعيد، هو مَنْ يحدد الاتجاه العام ويقدم التطور الحقيقي في أي مجتمع.

ولكن ليس من السهل دائمًا مواصلة تقدير الفرد حق قدره في وقت يُقمع فيه الأفراد في كل مكان ويُحطّ من شأنهم ويطغى عليهم التفكير الجماعي، والحركات الجماعية، وعلى نطاق أصغر تفكير الجماعة.

يشق على الشباب على وجه الخصوص، مع كل ما يواجهونه من عقبات

تبدو كالأسوار المنيعة، أن يؤمنوا بقدرتهم على تغيير الأمور، وعلى المحافظة على وجهات نظرهم الشخصية والفردية مصونة. أتذكر بوضوح كيف بدا لي الأمر وأنا في أواخر سني المراهقة وأوائل العشرينيات وأنا لا أرى سوى ما يبدو نظمًا منيعة من الفكر ومن العقائد - حكومات بدت لا تتزعزع. ولكن ماذا حدث لتلك الحكومات كالحكومة البيضاء في "روديسيا الجنوبية"، على سبيل المثال؟ ماذا حدث لتلك النظم العقائدية القوية مثل "النازية" أو "الفاشية الإيطالية" أو "الستالينية"؟ ماذا حدث للامبراطورية البريطانية... بل في الواقع لكل الامبراطوريات الأوروبية القوية حتى الأمس القريب؟ مضت جميعها، وفي زمن قصير حقًا.

حين أنظر إلى الوراء الآن، لا أرى تلك الكتل الهائلة، والأمم، والحركات، والنظم، والمعتقدات، والأديان، بل أرى أفرادًا فحسب، أناسًا لعلي قدَّرتهم وأنا صغيرة، ولكن ليس باعتقاد كبير في إمكانية تغييرهم لأي شيء. حين أنظر إلى الوراء، أرى الأثر العظيم الذي يمكن أن يُحدِثه الفرد، حتى الشخص غير المعروف الذي يحيا حياة بسيطة هادئة. الأفراد هم من يغيرون المجتمعات، ويولدون الأفكار، هم من يقاومون تيارات الآراء ويغيرونها. ويصدق هذا على المجتمعات المنفتحة مثلما يصدق على تلك القمعية، وإن كان معدل الخسارة بالطبع أعلى في المجتمعات المغلقة. كل ما مر بي علمني أن أُعلي من قيمة الفرد، الشخص الذي يُنمِّي طرقه، أو طرقها، الخاصة في التفكير ويحافظ عليها، الشخص الذي يصمد أمام تفكير الجماعة، وضغوطها. أو الشخص الذي، رغم الامتثال بالقدر الضروري لضغوط الجماعة، يحتفظ في هدوء بتفكيره ونموه الفردي.

أنا لا أتكلم عـن غريبي الأطـوار الذين تـدور حولهم جلـبة كبيـرة في بريطانيا. وأظن أن مجتمعًا شديد التزمت والامتثال هو وحده الذي يفرز فكرة غريبي الأطوار في المقام الأول. يميل غريبو الأطوار لحب فكرة الغرابة، وحالما بدأوا خطواتهم الأولى عـلى الطريق، صاروا لافتين بغرابتهم أكثر فأكثر، وينمون الغرابة لأجل الغرابة نفسـها. بل إني أتكلم عمن يفكرون فيما يجري في العالم، من يحاولون استيعاب المعلومات عن تاريخنا، عن كيف نتصرف ونعمل - أولئك الذين يرتقون بالإنسانية ككل.

في اعتقادي أن أي مجتمع ذكي ومتطلع عليه أن يفعل كل ما في وسعه من أجل خلق أفراد كهؤلاء، عوضًا عن كبحهم كما يحدث في أغلب الأحيان. وإذا لم تشجع الحكومات والثقافات إنتاج مثل أولئك الأشخاص، فيمكن إذن للأفراد والجماعات أن يقوموا بذلك، وينبغي عليهم أن يفعلوا.

يعود بنا ذلك إلى مفهوم النخبة، ولا مانع لدي في هذا السياق. لا يمكن أن نتوقع من حكومة أن تقول للأطفال: "سوف تعيشون في عالم مليء بالحركات الجماعية، الدينية والسياسية، أفكار جماعية، وثقافات جماعية. ستغمركم في كل ساعة من كل يوم أفكار وآراء أُنتِجت جماعيًا، ورُددت جماعيًا دون تفكير، أفكار تسـتقي حيويتها الوحيدة من قوة الدهماء، والشـعارات، والتفكير النمطي. سـتتعرضون للضغط طوال حياتكم لاتباع الحركات الجماعية، وإذا أمكنكم مقاومة ذلك، سـتجدون أنفسـكم يوميًا، تحت ضغط شتى أنواع الجماعات، وغالبًا من أصدقائكم المقربين، كي تمتثلوا لهم.

"سيبدو لكم في أوقات كثيرة من حياتكم عدم جدوى الصمود أمام هذه الضغوط، وأنكم لستم بالقوة الكافية.

"ولكننا سنعلمكم كيف تستقرئون هذه الأفكار الجماعية، وهذه الضغوط التي لا تُقاوَم كما يبدو، سنعلمكم كيف تفكرون لأنفسكم، وتختارون لأنفسكم".

"سنعلمكم قراءة التاريخ، لتعرفوا كيف أن الأفكار لا تعيش طويلا، وكيف يمكن، ويحدث، أن تزول بين عشية وضحاها أفكار كانت الأكثر إغراء وإقناعًا. سنعلمكم كيف تقرأون الأدب، وهو دراسة الجنس البشري لنفسه، حتى تفهموا تطور الناس والشعوب. الأدب فرع من علم الأنثروبولوجيا، فرع من التاريخ؛ وسوف نتأكد أنكم ستعرفون كيف تحكمون على فكرة ما من منظور الذاكرة الإنسانية طويلة الأمد. فالأدب والتاريخ فرعان للذاكرة الإنسانية، الذاكرة المسجلة".

"وستُضاف إلى هذه الدراسات تلك الفروع الجديدة من المعلومات، العلوم حديثة العهد كعلم النفس، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع وغيرها، حتى يمكنكم فهم سلوككم الخاص، وسلوك الجماعة التي ستكون لكم طوال حياتكم بمثابة السلوى والعدو في آن واحد، الدعم والإغواء الأكبر في ذات الوقت، حيث إن الاختلاف مع أصدقائكم - بوصفكم كائنًا جماعيًا - سيكون مؤلمًا دائمًا".

"سنعلمكم أنه مهما كان القدر الذي يجب عليكم الامتثال له ظاهريًا- لأن العالم الذي ستعيشـون فيه يعاقب عدم الامتثـال بالموت في كثير من الأحيـان - فسـتحافظوا على كينونتكم الخاصة حيـة داخلكم، حكمكم الخاص، فكركم الخاص..."

لا يمكن أن نتوقع شيئًا من هذا القبيل في المناهج الدراسية التي تضعها أي دولة أو حكومة نراها في العالم حاليًا. ولكن يمكن للآباء التحدث مع أبنائهـم وتعليمهم على هذا النحو، ويمكن لمدارس معينة أن تفعل ذلك. كما يمكن لجماعات الشباب البالغين الذين اجتازوا محنة تعليم الدولة، أو التعليم الخاص، ونجوا بقدر كافٍ من ملكاتهم النقدية مصونة حتى أنهم يريدون أكثر مما مُنح لهم، أن يُعلِّموا أنفسـهم ويُعلِّموا بعضهم البعض ما يشاؤون.

أناس هكذا، وأفراد هكذا سيكونون خمائر وافرة الإنتاج، ومحظوظ هو المجتمع الذي يحظى بالكثير منهم.

نحن نعيش في مجتمع منفتح، ونباهي أنفسنا بذلك مُحِقِّين. ويتميز المجتمع المنفتح بأن حكومته لا يجوز لها حجب المعلومات عن المواطنين، ولابد لها من السـماح بتداول الأفكار. ولكننا نأخذ ما لدينا كأمر مُسلَّم به، ونكف عن الشعور بقيمة ما اعتدنا عليه. لقد ناضلت أجيال من أسلافنا من أجل حرية الأفـكار حتى نحصل على ما حصلنا نحـن عليه الآن. وليس على المرء سـوى مقابلة أناس من خلف الستار الحديدي، لا سيما من "الاتحاد

السوفيتي"، حيث يُمنع تداول الأفكار، وتُحظَر المعلومات، وحيث يوجد مناخ قمعي خانق مغلق، حتى يتذكر كيف أننا محظوظون كثيرًا، رغم كل المآخذ التي يعاني منها مجتمعنا.

نحن محظوظون، لأننا قادرون على تعليم أنفسنا ما نرغب عندما تبدو لنا مدارسنا معيبة؛ وأن نبحث حيثما نشاء عن الأفكار التي نراها ذات قيمة.

أرى أنه يجب علينا الاستفادة من هذه الحريات أكثر مما نفعل.

وأنا أبحث عن مثال يوضح ما أراه من أن الأفراد ذوي التفكير المستقل والثائرين على المعتقدات المتوارثة يمكنهم التأثير في الأحداث، عثرتُ بالمصادفة على "إخناتون"، الحاكم المصري الذي اعتلى العرش 1400 سنة قبل ميلاد المسيح. كانت ديانة الدولة حزينة ويغلب عليها الموت، وكان ثمة عدد لا حصر له من الآلهة، نصفها إنسان ونصفها حيوان. كَرِهَ "إخناتون" هذه الديانة، فأبعد الكهنة المسيطرين العابسين، ونبذ الآلهة الكئيبة أنصاف الحيوانات، واتبع ديانة مبهجة تقوم على الحب، وعلى الإله الواحد. لم يستمر عهده سوى بضع سنوات أطيح به بعدها؛ وعادت الديانة القديمة والكهنة القدماء. أما "إخناتون"، فإذا ذُكِر أصلا، أُطلق عليه اسم المهرطق أو المجرم الكبير، وجعلوا منه شخصًا نكرة كما نقول الآن. اختفى من التاريخ، ولم يُعد اكتشاف وجوده إلا في القرن التاسع عشر. ومنذ ذلك الحين صار له أثر هائل على الناس بجميع أطيافهم. رأى "فرويد" أن "موسى" جاء

بفكـرة التوحيد من ديانة آتون، ديانة "إخناتون". ومنذ فترة قريبة، وضع "توماس مان" "إخناتون" في روايته العظيمة "يوسف وإخوته". ومؤخرًا، كتب "فيليب جلاس" أوبرا عنه.

كيف كان في الحقيقة هذا الملك الذي حكم منذ 3500 عام، والذي له مثل هذه القدرة الفائقة على إثارة خيالنا؟ لا نعرف عنه سوى القليل جدًا، لا نعرف سوى أنه أطاح بمجموعة أفكار، وفرض، ولو لفترة وجيزة، مجموعة جديدة من الأفكار. فرد واحد شجاع يتحدى الآلة المهولة للكهنة والدولة، شخص واحد يضع دين الحب والنور ضد ديانة الموت.

أغلب الظن أن "إخناتون" تساءل عندما كان صبيًا صغيرًا عما يمكن أن يفعله شخص واحد في مواجهة هذا النظام الرهيب القوي القمعي، بكهنته وآلهته المخيفين - ما جدوى المحاولة أصلًا؟

بقولي الاستفادة من حرياتنا، فأنا لا أعني المشاركة في المظاهرات، والأحزاب السياسية، وما إلى ذلك فحسب، فهذا جانب واحد من العملية الديمقراطية، بل أعني فحص الأفكار، مهما كان مصدرها، لنرى كيف يمكنها المساهمة النافعة في حياتنا وفي المجتمعات التي نحيا فيها.

"سجون نختار أن نحيا فيها" عنوان سلسلة من خمس محاضرات ألقتها "دوريس ليسنج" برعاية هيئة الإذاعة الكندية في عام 1985.

أُنشئتِ محاضرات "ماسي"(*) تكريما لصاحب المقام الرفيع السيد "فينِسنت ماسي" (Vincent Massey) الحاكم العام السابق لكندا، وبدأتها هيئة الإذاعة الكندية في عام 1961، بهدف إتاحة الفرصة أمام ثِقات متميزين لعرض نتائج دراسة أو بحث مستحدث عن مواضيع ذات اهتمام عام.

(*) لا تزال محاضرات "ماسي" قائمة إلى اليوم، وهي سلسلة من خمس محاضرات تُذاع سنويًا في نوفمبر من كل عام، وتدور حول مواضيع سياسية أو ثقافية أو فلسفية. أصبحت منذ عام 2002 تقام أمام الجمهور في مدن كندية مختلفة، وتُسجّل للإذاعة، ثم تنشر في كتاب. (المترجمة، المصدر: ويكيبيديا).

عـن المـؤلفـة(*)

بعد صدور روايتها "العُشــب يُغني" في عام 1950، رسخت "دوريس ليسنج" مكانتها كروائية كبيرة، ومنذ ذلك الحين نُشر لها ما يزيد على ثلاثين كتابا من بينها سلسـلة "أطفال العنف" المكونة من خمسة أجزاء ومجموعة كبيرة من القصص عن أفريقيا حيث نشأت.

كانت مزرعة والديها المنعزلة في "روديسـيا الجنوبيـة" مكانًا خانقًا لها وهــي صغيرة، فتعلمت أن تحلق بخيالهـا لتخلق عوالمها الخيالية الخاصة. تركتْ المدرسـة في ســن الرابعة عشرة وأكملت تعليمها غير الرسمي من خلال القراءة المكثفة، لا سيما للأدبين الإنجليزي والأمريكي.

انتقلت "دوريس ليســنج" وهي في الثامنة عشرة إلى "ســالزبوري" في غرب انجلترا حيث كونت علاقات أدت إلى ارتباطها لفترة وجيزة بالحزب الشيوعي. وفي عام 1949، عندما كانت في أوائل العشرينيات من عمرها، أخذت ابنها "بيتر" من زواجها الثاني إلى إنجلترا. وقد تكون حياتها في منطقة الطبقة العاملة في لنــدن، الرثة والنابضة بالحياة في ذات الوقت، هي التي ألهمتها فيما بعد الحس الفكاهي الساخر في رواية "تعقبًا للإنجليز".

(*) حصلت "دوريس ليسنج" (1919 - 2013) على جائزة نوبل للآداب في عام 2007، أي بعد عشرين عاما من كتابة هذه المقالات. (المترجمة)

شكلت مراقبتها طوال حياتها للتميز العنصري والقهر السياسي الاجتماعي، إلى حد بعيد، الأفكار التي تختار التعبير عنها في أعمالها. وهي تعكس ككاتبة الأحوال الإنسانية في السياق الاجتماعي الواسع وليس في الإطار الشخصي. وتتميز قصصها باهتمام كبير بما وصفته بقولها: "وعي الفرد في علاقته بالوعي الجمعي". أخذها سعيها الأدبي في السنوات الأخيرة من الواقعية الاجتماعية إلى العوالم الخيالية للفضاء الخارجي والفضاء الداخلي للعقل. وتعد "دوريس ليسنج" - التقدمية دائمًا - واحدة من أكثر الكتاب رؤية وتبصرًا في العصر الحديث.



عـن المتـرجـمـة

سهير صبري

- حاصلة على ليسانس في الأدب الإنجليزي، ودبلوم ترجمة من جامعة القاهرة.
- عملت مترجمة لسنوات مع منظمات حقوق الإنسان والتنمية داخل مصر وخارجها، ثم في بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالقاهرة، ترجمت خلالها العديد من المطبوعات والكتب.
- في مجال الترجمة الأدبية، ترجمت كتاب "أزمة منتصف العمر الرائعة" للكاتبة الأمريكية إيدا لوشان، الذي لاقى نجاحًا كبيرًا عندما صدر للمرة الأولى في عام 1997 عن دار شرقيات للنشر، وأُعيد نشره في مركز الأهرام للترجمة والنشر عام 2010.
- كتبت مجموعة قصصية بعنوان "... وأرقص"، صدرت عن دار العين للنشر والتوزيع عام 2014.

بريد الكتروني: ssabry100@yahoo.com

فيسبوك: Sohair Sabry



سجون نختار أن نحيا فيها

"أقضي بعض الوقت أتساءل، كيف يا ترى سنبدو للقادمين من بعدنا؟ وهذا ليس اهتمامًا فارغًا، بل محاولة متعمَّدَة لدعم قدرة تلك "العين الأخرى" التي يمكننا اللجوء إليها للحكم على أنفسنا. كل مَنْ يقرأ التاريخ يدرك أن القناعات القوية المتقدة في قرن من الزمان عادة ما تبدو سخيفة وعجيبة للقرن التالي. لا توجد حقبة في التاريخ تتراءى لنا كما لا بد أنها تراءت لمَنْ عاشوها. فما نعيشه، في أي عصر، هو وقع العواطف الجماعية والظروف الاجتماعية علينا، ومن المُتعذِّر تقريبًا أن نفصل أنفسنا عنها. وغالبًا ما تكون العواطف الجماعية هي تلك التي تَلُوحُ كالأنبل والأفضل والأجمل. ولكن، في غضون عام أو خمسة أعوام أو عقد أو خمسة عقود، سيتساءل الناس "كيف لهم أن اعتقدوا في ذلك؟" لأن أحداثًا ستكون قد وقعت وأقصت تلك العواطف الجماعية إلى مزبلة التاريخ، إذا جاز لنا القول".

تصميم الغلاف: عمرو :





